Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

GENERAL
LIBRARY

رسالة الهناء

للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري

١ - نصوص ودراسات   ٢ - النص الكامل

شرح وتحقيق

كامل كيلاني

الطبعة الأولى

١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م

كل الحقوق محفوظة

عنيت بنشرها دار الكتب الأهلية

ميدان إبراهيم باشا بجوار سينما أوبرا - بالقاهرة

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر لصاحبها محمود الخضري

893.7Ab92
T5
v.1

1342

PJ
7750
.A25
R6
1944
893.7A692 v.1
T5
v.1

DEC 3 1979

أبو العلاء المَعرىّ كما يتخيله كامل كيلانى

الجزء الأول

نصوص ودراسات

الفِكْر والعَقْل

« الفِكْرُ حَبْلٌ — مَتَى يُمْسِكْ عَلَى طَرَفٍ
مِنْـهُ — يُنِطْ بِالثُّرَيَّا ذٰلِكَ الطَّرَفُ
والعَقْلُ كالْبَحْرِ ، ما غِيضَتْ غَوَارِبُهُ
شيئاً ؛ وَمِنْـــهُ بنو الْأَيَّامِ تَغْتَرِف »

« أبو العلاء »

نصوص ودراسات

تمهيد

القدرة الإلهية

١ – الوفاء والغدر

يَرَى أُستاذُنا الجليلُ « أبو العلاء » – فيما يراهُ – أنّ قدرَةَ اللهِ، سُبحانَه، لا يُعجِزُها شيءٌ، فاليبيسُ مُستعيدٌ – عشيّتَهِ – بعدَ اصفرارِهِ، شبابَهُ وخُضرتَهُ، مُستردٌّ – بعدَ مواتِهِ – حياتَهُ ونَضرتَهُ.

والنّيرانُ المُلتهِبَةُ مُتفجّرٌ لهيبُها – بأمرِهِ – مياهًا سائلةً، والطّبيعةُ الإنسانيّةُ مُتحوّلةٌ – بإذنِهِ – مِنَ الغدرِ إلى الوفاءِ.

والأغنامُ مُتغيّرةٌ طِباعُها – بحُكمِهِ – مُستبدِلةٌ بضعفِها قوّةً، واستخذائِها إقدامًا وعزيمةً، متخيّرةٌ مِن عرينِ السّباعِ سكنًا تأوي إليه وتَقِرُّ فيه.

وهكذا يسترسل « أبو العلاء » — في خياله البارع، وأسلوبه الساخر الفياض بالدعابة القاسية والتهكم اللاذع، والسخط المرير. فيثبت لنا — بما ألفناه من طرائق إثباته المبدعة — أن الطبيعة الإنسانية لا سبيل إلى استقامتها واستوائها، إلا إذا تغيرت طبائع الأشياء كلها، وانقلبت حقائق الكون الثابتة، فدبت الحياة في الهشيم، وتحولت النار ماء، والأغنام المستضعفة سباعا ضارية.

وإلى القارئ النص العلائي الذي فصلناه :

« إذا أذن ربنا اخضر الدرين (اليبيس).

وتبجست — بالماء الإرين[1] (النيران)

ووفى لقرينه، القرين، وراحت الساجسية (وهي ضرب من الغنم) ومأواها العرين . . .

وذلك — من القدرة — ليس ببديع ! ».

---

(١) جمع إرة، وجمعها على وجهين — كما يقول المعري — إن شئت أن تجعله مثل الزيدين (بواو في الرفع وياء في النصب والخفض) وإن شئت أن تجعل نونه مثل نون مسكين، فتجري عليها الاعراب.

٢ – الصدق والكذب

وَفِي رِسالَةِ الْهَناءِ هٰـذِهِ الَّتِي نَجْلُوها لِرُوّادِ الْأَدَبِ الْعَلائِيِّ فِي عِيدِهِ الْأَلْفِيِّ (١) يُقَرِّرُ لَنا شَيْخُ الْمَعَرَّةِ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ الطَّبْعُ الْإِنْسانِيُّ مِنَ الْكَذِبِ إِلَى الصِّدْقِ ، وَيَسْلُكُ فِي تَقْرِيرِهِ مِثْلَ ذٰلِكَ النَّسَقِ الْفَرِيدِ الْمُبْتَدَعِ الَّذِي سَلَكَهُ فِي فُصُولِهِ وَغاياتِهِ ، فَيَتَمَثَّلُ صاحِبَهُ وَقَدِ انْشَقَّتْ لَهُ لُجَجُ الْبِحارِ بِإِذْنِ اللهِ ، كَما انْشَقَّتْ – مِنْ قَبْلُ – لِمُوسَى الْكَلِيمِ ، ثُمَّ يَتَمَثَّلُ دَهْشَةَ الْأَسْماكِ – حِينَئِذٍ – مِمّا حَدَثَ ، وَيَتَخَيَّلُ حِيتانَ الْبَحْرِ ، وَهِيَ تَتَحَدَّثُ مُتَعَجِّبَةً مُتَطَلِّعَةً إِلَى تَعَرُّفِ اسْمِ ذٰلِكَ الشَّيْخِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَمَّتْ عَلَى يَدَيْهِ الْمُعْجِزَةُ ، مُضاعِفَةً لِصاحِبِهِ الثَّناءَ ، داعِيَةً لَهُ بِطُولِ الْبَقاءِ ، وَمَوْصُولِ السَّعادَةِ وَالْهَناءِ ، مُبْتَهِلَةً إِلَى اللهِ أَنْ يُجْزِلَ لَهُ فِي عَطائِهِ وَمُكافَآتِهِ ، فِي دُنْياهُ وَآخِرَتِهِ ، جَزاءَ ما أَسْلَفَ لِلنّاسِ مِنْ مَكْرُماتٍ ، وَأَسْدَى إِلَيْهِمْ مِنْ حَسَناتٍ .

---

(١) ولد أبو العلاء يوم الجمعة عند مغيب الشمس ، لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان ، وتوفي ليلة الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ .

فإذا انتهى شيخُ المعرّةِ من هذا التمهيدِ، راح يصفُ في براعتهِ النادرةِ، وألمعيتهِ الساخرةِ، كيف تأذنُ القدرةُ الإلهيّةُ أن تخمدَ نيرانُ الكذبِ، ومتى تُريحُ العالمَ من لهيبهِ المستعرِ، الّذي لا يبقي ولا يذر.

ولكنّهُ يبني آمالهُ البعيدةَ على مقدّماتٍ تسبقها، وهي في قدرةِ اللهِ هيّنةٌ، وإن كانت في طاقةِ البشرِ مستحيلةَ التّحقيقِ.

فهوَ إذا شاء — سبحانهُ — أمرَ الأُججَ الملاحَ، فأصبحت عسلاً سائغاً حُلوَ المذاقِ، وانقلبت ملوحتُها المفرطةُ في المرارةِ، شهداً مفرطاً في اللذاذةِ والحلاوةِ.

وهوَ إذا شاء — سبحانهُ — جعلَ السّفينةَ تمشي على اليابسةِ، وتُصبحُ قبساً متوهّجاً من السّنا والنّور، كأنّما قبس لتوّه من شعلةٍ من النّارِ ملتهبةٍ. وليس هذا بالمطلبِ البعيدِ المنالِ، متى أذِنَ من أبدعَ الأكوانَ على غيرِ مثالٍ.

وهوَ إذا شاء — سبحانهُ — أمرَ الرّيحَ أن تحملَ

السَّفينةَ وَأَنْ تَطِيرَ بِها فِي أَجْوازِ الْفَضاءِ ، كَما حَمَلَتْ عَرْشَ « بلقيس » فِي غابِرِ الزَّمانِ ، فإنَّ الْقِياسَ يُجَوِّزُ وُقوعَهُ وَيَرْضاهُ ، والْقُدْرَةَ تُقِرُّ حُدُوثَهُ وَلا تَأْباه .

وَلَوْ شاءَ — سُبْحانَهُ — لَجَعَلَ أَسْماكَ الْبَحْرِ وحيتانَهُ آمِناتٍ مُمَنَّعاتٍ ، فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ هانِئاتٍ ، يَتَهادَيْنَ فِي ذُرَا الْجِبالِ الشَّامِخاتِ ، وَيَمْرَحْنَ فِي أَرْجائِها الْفَسِيحَةِ مُنْطَلِقاتٍ ويَجْرِينَ فِي جَنَباتِها مُسْرِعاتٍ ، كَما تَجْرِي أَسْرابُ النَّعامِ فِي واسِعِ الْفَلَواتِ ، زَرافاتٍ وَجَماعاتٍ .

***

وَهُنا يَتَمَثَّلُ « أَبُو الْعَلاءِ » صاحِبَهُ — وَقَدْ تَمَّ لَهُ الْمُرادُ ، وَبَلَغَ مِنْ غايَتِهِ ما أَرادَ — وَيَتَمَثَّلُ الْقُدْرَةَ الإِلٰهِيَّةَ الَّتِي لا يُعْجِزُها شَيْءٌ مُمْتَنِعٌ فِي الْعُقُولِ ، وَقَدْ أَذِنَتْ لِمِياهِ الْبَحْرِ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ ، وَأَعْلَنَتْ كَلِمَتَها بِأَنْ يَنْصَلِحَ ما فَسَدَ مِنَ الزَّمانِ ، وَيَسْتَقِيمَ ما اعْوَجَّ مِنْ طَبْعِ الإِنْسانِ ، وتَنْطَفِئَ نِيرانُ الإِفْكِ والْبُهْتانِ .

وَمَتَى تَحَقَّقَتْ هذهِ الخَوارِقُ والمُعْجِزَاتُ ، انتصر الصِّدْقُ عَلَى الأَكاذِيبِ والتُّرهاتِ . فَلْنَرْتَقِبْ مَعَ شَيْخِنا المَعَرِّى هٰذِهِ النَّتائِجَ الْباهِرَاتِ ، فَلَسْنا يائِسِينَ مِنَ الْفَوْزِ والظَّفَرِ ، والْعاقِبَةُ لِمَنْ تَأَنَّى وَصَبَرَ .

٣ — سخرية ابن الرومى

لَعَلَّ الكَثِيرِينَ مِنْ قُرّاءِ « ابْنِ الرُّومِى » يَذْكُرُونَ — بِهٰذِهِ المُناسَبَةِ — أُسْلُوبَهُ الْبارِعَ فِي سُخْرِيَتِهِ مِنَ الْوَزِيرِ « أَبِي الصَّقْرِ » حِينَ وَلِيَ الدِّيوانَ ، وَعَجَبَ خُصُومِهُ مِنْ تِلْكَ الطَّفْرَةِ ، وَكَيْفَ تَظاهَرَ « ابْنُ الرُّومِى » بِاسْتِنْكارِ ما تَخَيَّلَهُ مِنْ دَهْشَتِهِمْ فَقَرَّرَ لَهُمْ مُعابِثًا ساخِطًا أَنَّ ظَفَرَهُ بِذٰلِكَ الْمَنْصِبِ لَيْسَ أَعْجَبَ مِنْ ظَفَرِهِ بِالانْتِسابِ إِلَى أُسْرَةِ « شَيْبانَ » الْعَرَبِيَّةِ الْكَرِيمَةِ مَعَ أَنَّهُ مِنَ الأَعْجامِ ، وَلٰكِنَّ الْحَظَّ السَّعِيدَ يَصْنَعُ الأَعاجِيبَ ، وَالْقُدْرَةَ الإِلٰهِيَّةَ تَفْعَلُ ما تَشاءُ مِنَ الْغَرائِبِ ، ثُمَّ خَتَمَ دُعابَتَهُ الْقاسِيَةَ بِقَوْلِهِ :

إنَّ لِلحظِّ كيمياءً، إذا ما مسَّ كلباً أحالَه إنسانا
يفعلُ اللهُ ما يشاء، كما شا ء، متى شاء، كائناً ما كانا

٤ — تصوير الأمانيّ

وللمعرّي في هذه الرّسالة مثلُ ما له في غيرها من منثوره ومنظومه: فنونٌ معجبةٌ في وصف ما تبدعُه القدرةُ من تصويرِ الأمانيّ والأحلام، وبعثِ الهواجسِ والأوهام، شخوصاً باديةً للعيان، ماثلةً في الخلدِ والجنان.

وهو لا يفتأ يتمثّلُ جميعَ الكائنات، من جمادٍ وحيوانٍ ونباتٍ، وكواكبَ وسيّاراتٍ، وحروفٍ هجائيّةٍ وكلماتٍ، وقوافٍ وحركاتٍ، وأصفارٍ وأعدادٍ وأرقامٍ مضروباتٍ ومقسوماتٍ، كأنّما هي أناسيُّ مثلُنا، موفورةُ الإحساسِ بالحياة، تألمُ مثلَ ما نألمُ، وتتناجى كما نتناجى، ويعرضُ لها كما تعرضُ لنا — ألوانٌ من الأماني والرّغبات، وتستحرُّ بينها ضروبُ الفتنِ والعداوات، وتعلنُ في منطقٍ — هو على خفائه عنّا — بليغٌ فصيحٌ، رائعُ التقديسِ

وَالتَّسْبِيحِ، تَبْتَهِلُ بِصَادِقِ الدَّعَوَاتِ، فِي الْغُدُوَاتِ وَالْآصَالِ وَالرَّوْحَاتِ، لِخَالِقِ الْأَرَضِينَ وَمُبْدِعِ السَّمَاوَاتِ.

فَلَا غَرْوَ إِذَا رَأَيْنَاهُ يَتَمَثَّلُ — فِي هٰذِهِ الرِّسَالَةِ — طَرِيقًا ضَيِّقًا يَبْتَهِلُ إِلَى خَالِقِهِ أَنْ يَجْزِيَ صَاحِبَ «الْمَعَرِّيِّ» أَحْسَنَ الْجَزَاءِ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى مَا بَذَلَ مِنْ صَالِحِ الْمَسْعَى، وَيَتَّجِهُ الدَّرْبُ إِلَى اللهِ أَنْ يُبَدِّلَ مِنْ شِعَابِهِ الضَّيِّقَةِ، مَسَالِكَ وَطُرُقًا فَسِيحَةَ الرِّحَابِ، تَغْدُو — لِفَرْطِ سَعَتِهَا — كَأَنَّهَا الصَّحَارَى وَالسَّبَاسِبُ، لَا تَضِيقُ بِالْعَدَدِ الْأَوْفَرِ مِنَ الْجُيُوشِ الْحَاشِدَةِ وَالْمَوَاكِبِ. وَأَنْ تَتَبَدَّلَ أَحْجَارُ الْأَكَمَةِ الْخَشِنَةِ، فَتُصْبِحَ بَعْدَ خُشُونَتِهَا نَاعِمَةً، كَأَنَّهَا لِمَلَاسَتِهَا رَقُّ نَعَامٍ.

ثُمَّ يَتَمَادَى فِي خَيَالِهِ فَيَتَمَثَّلُ الْقُدْرَةَ الْإِلٰهِيَّةَ قَدْ بَدَّلَتْ لِصَاحِبِهِ أَحْجَارَ التِّلَالِ مَوَائِدَ حَافِلَةً بِلَذَائِذِ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ، يُصِيبُ مِنْهَا الْجَائِعُ وَيَرْتَوِي الظَّمْآنُ كَمَا شَاءَ، لَا يَتَكَبَّدُ فِي ذٰلِكَ مَشَقَّةً وَلَا عَنَاءً.

٥ — من عجائب القدرة

وَلِلْمَعَرِّيِّ — فِي غَيْرِ هٰذِهِ الرِّسَالَةِ أَيْضاً — مِنْ رَوَائِعِ الصُّوَرِ الْفَنِّيَّةِ الَّتِي يَتَمَثَّلُ فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ، مَا لَا تَتَّسِعُ لَهُ هٰذِهِ الْإِلْمَامَةُ الْمُوجَزَةُ، فَلْنَجْتَزِئْ مِنْ ذٰلِكَ بِوَجَازَةٍ خَاطِفَةٍ، تَارِكِينَ التَّفْصِيلَ لِفُرْصَةٍ أُخْرَى. فَهُوَ يَقُولُ فِي فُصُولِهِ.

« يَقْدِرُ اللهُ عَلَى الْمُسْتَحِيلَاتِ: رَدِّ الْفَائِتِ، وَجَمْعِ الْجِسْمَيْنِ فِي مَكَانٍ، وَمَا لَا تَحْتَمِلُهُ الْأَلْبَابُ، إِذْ كَانَ لَا يُنْسَبُ إِلَى عَجْزٍ أَوِ انْتِقَاصٍ. فَإِذَا مَرَرْتَ بِعُودِ بَالٍ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْسُوَهُ أَخْضَرَ كَخُضْرَةِ الْحُسَامِ، حَتَّى يُورِقَ وَرَقاً، كَعَدَدِ الرِّمَالِ، وَيَقِفَ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ وَرْقَاءَ (حَمَامَةً) تَعْبُدُهُ بِأَلْحَانٍ مَعْبَدِيَّاتٍ (مَنْسُوبَةٍ إِلَى « مَعْبَدٍ » الْمُغَنِّي الْمَعْرُوفِ) » أَوْ يَقُولُ:

وَفِي قُدْرَةِ الْخَالِقِ أَنْ يَجْعَلَ الرَّاحَةَ (بطن الْيَد) ذَاتَ ذَوَائِبَ، وَالْهَامَةَ (الرَّأْس) كَفَائُورِ اللُّجَيْنِ (خِوَانِ الْفِضَّةِ)

وَأَنْ يُجْرِيَ الْفِضَّةَ مِنَ الْفِجاجِ ». أَوْ يَقُولُ : « وَاللهِ — بِقُدْرَتِهِ — يُطِيرُ ذَوَاتِ الْأَخْفافِ ».

٦ — عصر السرعة واللاسلكى

ثُمَّ يَسْبَحُ الْخَيالُ بِأَبِي الْعَلاءِ ، فَيَسْتَبِقُ الْأَجْيالَ ، حَتَّى لِيَتَمَثَّلُ عَصْرَنا الْحاضِرَ : عَصْرَ السُّرْعَةِ الْخاطِفَةِ وما يَنْلُوهُ مِنْ عُصُورٍ ، مُتَنَبِّئًا بِما كَشَفَهُ الْعِلْمُ وَما لَمْ يُزِحِ السِّتْرَ عَنْهُ إِلَى الْيَوْمِ ، فيقول :

« إِنْ شاءَ الْمَلِيكُ (اللهُ) ، قَرَّبَ النّازِحَ وَطَواهُ ، حَتَّى يَطُوفَ الرَّجُلُ — فِي اللَّيْلَةِ الدّانِيَةِ بَياضُ الشَّفَقِ مِنْ حُمْرَةِ الْفَجْرِ (١) — طَوْفَهُ بِالْكَعْبَةِ ، حَوْلَ « قاف » (وَهُوَ — فِيما تَقُولُ الْأَساطِيرُ — جَبَلٌ مُحِيطٌ بِالْأَرْضِ) ، ثُمَّ يَؤُوبَ إِلَى فِراشِهِ وَاللَّيْلَةُ ما هَمَّتْ بِالإِسْحارِ ».

وَثَمَّةَ يَطْفُرُ بِهِ خَيالُهُ الْوَثّابُ ، فَيَتَمَثَّلُ فِي عالَمِ الْأَمانِيِّ وَالْأَحْلامِ ، ما بَلَغَهُ الْعِلْمُ بَعْدَ عَصْرِهِ بِأَلْفِ عامٍ ، فَيَتَخَيَّلُ

(١) يعنى فى الليلة القصيرة التى يقترب نهاية شفقها من بداية فجرها .

الإذاعة اللاسلكية التي أصبحت الآن حقيقة راهنة بعد أن كانت وهماً من الأوهام ، فيقول :

« ويُسلِّم بمكة ، فيسمعه أخوه بالشام »

ثم يتمادى في خياله فيتمثل الإنسان وقد استطاع أن ينقل النار في لحظات من مكان قصي إلى آخر ، أو يتخيله يغص باللقمة وهو في « خراسان » فيسرع إلى ماء « زمزم » ليستقي منه ويزيل غصته به ، أو بغيره من المياه البعيدة النائية ، فيقول :

« ويأخذ النار من تهامة ، فيوقد بها النار في يبرين وقاصية الرمال .

ويجاز بأكيلته (يغص بلقمته) : في قصور فرغانة (في خراسان) فيعتصر بماء المضنونة (زمزم) أو جراب (موضع بعيد ، فيه ماء) » .

٧ — الحواس الخمس

ومن أبرع ما نقبه في هذا الصدد ، قوله في مناجاة خالقه :

« لا يعجزك ممتنع في العقول ! » إلى أن يقول :

« يَقْدِرُ رَبُّنَا أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانَ يَنْظُرُ بِقَدَمِهِ ، وَيَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ بِيَدِهِ ، وَتَكُونُ بَنَانُهُ مَجَارِيَ دَمْعِهِ ، وَيَجِدُ الطَّعْمَ بِأُذُنِهِ ، وَيَشَمُّ الرَّوَائِحَ بِمَنْكِبِهِ ، وَيَمْشِي — إِلَى الْغَرَضِ — عَلَى هَامَتِهِ » وَهٰكَذَا إِلَى أَنْ يَقُولَ :

« وَذٰلِكَ — مِنَ الْقُدْرَةِ — يَسِيرُ »

٨ — تذليل الوحوش

وَقَدْ عَرَفَ الْقَارِئُ كَيْفَ تَمَثَّلَ شَاعِرُنَا — الْأَسْمَاكَ فِي هٰذِهِ الرِّسَالَةِ يَجْرِينَ فِي فَمِ الْجِبَالِ كَمَا تَجْرِي النَّعَامُ فِي الصَّحَارَى وَالْقِفَارِ ، وَإِلَى الْقَارِئِ صُورَةً أُخْرَى تُمَثِّلُهُ وَهُوَ يَتَخَيَّلُ الْقُدْرَةَ الْإِلٰهِيَّةَ وَقَدْ ذَلَّلَتِ الْوُحُوشَ الضَّارِيَةَ الْمُفْتَرِسَةَ فَجَعَلَتْهَا أَلِيفَةً وَدِيعَةً تَحْمِلُنَا كَمَا تَحْمِلُنَا الْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ وَمَا إِلَيْهَا ، ثُمَّ يَتَمَثَّلُ النَّعَامَةَ الَّتِي لَا يَقِرُّ لَهَا قَرَارٌ ، وَقَدْ حَوَّلَتْهَا الْقُدْرَةُ حَيَوَانًا ذَلُولًا هَادِئًا ، فِي مِثْلِ وَدَاعَةِ الْجَمَلِ أَوِ الْحِمَارِ ، يَسْتَقِرُّ عَلَى جِسْمِهَا الرَّحْلُ أَوِ الْبَرْذَعَةُ وَيُوضَعُ فِي فَمِهَا الزِّمَامُ أَوِ اللِّجَامُ .

وَإِلَيْكَ النَّصَّ : «لَوْ شَاءَ رَبُّنَا سَخَّرَ لَنَا وُحُوشَ الْبَرِّ ، فَنَقَلَتْنَا نَقْلَ النَّعَمِ الذُّلُلِ ، وَرَكِبْنَا النَّعَائِمَ بِأَزِمَّةٍ وَأَقْتَابٍ» .

أَوْ يَتَمَثَّلُ الْقُدْرَةَ وَقَدْ غَيَّرَتْ مَأْلُوفَ مَا نَعَوَّدْنَاهُ ، فَأَهْلَكَتِ الثُّرَيَّا أَوْ أَبَادَتْ نُجُومَ السَّمَاءِ قَاطِبَةً ، فَيَقُولُ :

يَجُوزُ بِحُكْمِهِ مَوْتُ الثُّرَيَّا وَأَنْ تَبْقَى السَّمَاءُ بِلَا نُجُومِ

٩ — قصة الصخرة

أَوْ يَتَمَثَّلُ «الْمَعَرِّيُّ» رَجُلاً حَدِيدَ الْبَصَرِ ، كَأَنَّ عَيْنَهُ — فِي حِدَّتِهَا وَنَفَاذِهَا — عَيْنُ زَرْقَاءِ الْيَمَامَةِ الَّتِي ضُرِبَتْ بِهَا الْأَمْثَالُ ، وَافْتَنَّتْ فِي وَصْفِهَا الْأَسَاطِيرُ الْعَرَبِيَّةُ حَتَّى زَعَمَ الرُّوَاةُ : «أَنَّهَا نَظَرَتْ إِلَى سِرْبِ قَطًا وَهُوَ عَابِرٌ بَيْنَ نِيقَيْنِ(١) فَقَالَتْ :

لَيْتَ الْحَمَامَ لِيَهْ إِلَى حَمَامَتِيَهْ
وَنِصْفَهُ قَدِيَهْ(٢) صَارَ الْحَمَامُ مِيَهْ

وَإِنَّ ذَلِكَ الْقَطَا حَطَّ بِأَسْرِهِ عَلَى شَبَكَةِ صَائِدٍ ، فَاصْطَادَهُ

---

(١) النيق : الجبل أو أعلى موضع فيه . (٢) حسبي

كلَّهُ ، فوجدهُ ستاً وستين . فضربَ العربُ بها المَثَلَ » .

وقد أشارَ إليها النَّابغةُ في مُعلَّقتِهِ ، فقالَ يخاطِبُ « النُّعْمانَ بن المُنْذِرِ » :

«واحكمْ ، كحكمِ فتاةِ الحيِّ ، إذ نظرَتْ
إلى حمامٍ سراعٍ واردِ الثَّمَدِ (١)
يحفُّهُ جانبا نيقٍ ، وتُتْبِعُهُ
مِثْلَ الزُّجاجةِ ، لمْ تُكْحَلْ من الرَّمَدِ (٢)
قالتْ : « ألا ليتَما هذا الحَمامُ لَنا
إلى حمامَتِنا ، ونِصْفُهُ ، فقدِ (٣)
فحسَبوهُ ، فألفَوْهُ كما حسَبَتْ
تِسعاً وتِسعينَ ، لمْ تنقُصْ ولمْ تزِدِ

---

(١) الماء القليل .

(٢) أى تتبعه عينها وهى فى مثل صفاء الزجاجة ، ولم يصبها رمد قط فتحتاج الى كحل يشفيها منه .

(٣) فقد : فحسب .

فَكَمَلَتْ مِائَةً فِيهَا حَمَامَتُهَا ،

وَأَسْرَعَتْ حِسْبَةً(١) فِي ذَٰلِكَ الْعَدَدِ »

***

يَتَمَثَّلُ الْمَعَرِّى رَجُلاً عَيْنُهُ كَعَيْنِ هٰذِهِ الْفَتَاةِ حِدَّةً وَنَفَاذاً — أَوْ لَعَلَّهُ أَقْوَى مِنْهَا نَظَراً ، وَأَحَدُّ بَصَراً — وَقَدْ أَمْسَكَ الرَّجُلُ بِكَأْسٍ نَاصِعَةٍ شَفَافَةٍ صَافِيَةٍ ، تَحْتَوِى خَمْراً حَمْرَاءَ قَانِيَةً ، لَا يَكَادُ يُخْطِىءُ رَائِيهَا ، حَقِيقَةَ مَا فِيهَا ، وَلَوْ كَانَ أَضْعَفَ النَّاسِ ، وَأَكَلَّهُمْ نَظَراً ، فَكَيْفَ بِمَنْ وُهِبَ مِنْ حِدَّةِ الْبَصَرِ ، مَا لَمْ يُوهَبْهُ غَيْرُهُ مِنَ الْبَشَرِ !

يَنْظُرُ الرَّجُلُ فِيمَا تَحْوِيهِ كَأْسُهُ مِنْ خَمْرٍ ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ حَقِيقَتُهَا بِأَدْنَى نَظَرٍ .

***

فَإِذَا أَتَمَّ « الْمَعَرِّىُّ » إِبْدَاعَ هٰذَا اللَّوْحِ الْفَاتِنِ

---

(١) الحسبة : الحساب ، والمعنى ، أنها أحسنت حساب الحمام فى تلك الناحية .

انتقلَ يرسمُ لنا بريشةِ الفنّانِ الموهوبِ لوحاً ثانياً بارعَ الخيالِ، نادرَ المثالِ، فأبدعَ لنا صخرةً صلبةً مُضمتةً، يصوّرُها خيالُه الواسعُ الوثّابُ وقد بلغتْ من الضّخامةِ ما لا يدورُ بخَلَدٍ، ولا يخطرُ على بالِ أحدٍ. وكيف يُدرِكُ مداها العقـــل، وجبالُ الأرضِ مُجتمعةً تتضاءلُ بالقياسِ إليها، كما تتضاءلُ الهباءةُ أو الذرّةُ إذا قيستْ إلى الجبلِ الشّامخِ!

وكيف تتخيّلُها الظّنون، أو تتعلّقُ بها الحُدوس(١)، إذا قيلَ لها: «إنّ الشّمسَ الّتي عرفنا سُرعةَ جريِها لا تقطعُ مدى هذهِ الصّخرةِ في أقلَّ من ألفِ عامٍ!

ثُمّ يتمادى خيالُه الوثّابُ فيبدعُ لوحاً ثالثاً، يُمثّلُ لنا في وسطِ الصّخرةِ الهائلةِ، أصغرَ جسمٍ متحرّكٍ يتخيّلُه الإدراكُ. ومتى أتمَّ «المعرّي» إبداعَ هذهِ الألواحِ المُشرقةِ، جمعَ بينَ صُوَرِها الأخّاذةِ ليُقرّبَ ما يتوخّاهُ من غرضٍ ويُدني

---

(١) جمع حدس: وهو التخمين والتوهم.

غايته البعيدة للمتأملين، وراح يقابل بين الصخرة الكثيفة المصمتة، والكأس الشفافة الصغيرة: «والضد يظهر حسنه الضد»، كما يقولون. ثم يقابل ما تحويه الصخرة الصماء، من ذرة متحركة — هي وحركتها — غاية في الضآلة والخفاء، بما تحويه الكأس الشفافة الصافية، من خمر قانية غاية في الوضوح والجلاء.

فإذا تمت المقابلة الفنية المبدعة خلص فيلسوفنا الشاعر الموهوب — إلى نتيجته البعيدة التي هدف لها، ليقرر في منطق سديد، وبيان فريد: أن ذلك الجسم المتحرك المتناهي في الضآلة والصغر، لا تخفى حركته عن عين الخالق القدير. وكيف تخفى عنه — سبحانه — وقد نمت بها الصخرة، كما نمت الكأس لشاربها — وهي في يده — بما تحويه من خمر.

وإليك النص العلائي: «ولو كانت صخرة صماء، مسيرة

أَلْفِ عامٍ لذُكاء (وَهِيَ الشَّمْسُ)؛ فِي وَسَطِها أَصْغَرُ جِسْمٍ مُتَحَرِّكٍ؛ تَمُتُّ تِلْكَ الصَّخْرَةُ إِلَى اللهِ بِحَرَكاتِ ذلكَ الجِسْمِ — نَمِيمَةَ الزُّجاجةِ الصافِيَةِ بِالخَمْرِ القانِيَةِ، إلى عَيْنِ الشّارِبِ، وهِيَ في يَدِهِ: على أنه (يَعْنِي الشارب) في النَّظَرِ كزرقاء اليَمامةِ؛ أو أَحَدٌ منها عَيْنًا. بَلْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ — إلى اللهِ — أَنَمُّ فِي النَّظَرِ مِنْ صافِي الزُّجاجِ».

١٠ — عَلَى لسان شاعر

وَلَيْسَ هذا الخَيالُ البارِعُ الفَسِيحُ بِمُسْتَغْرَبٍ مِمَّنْ يَقُولُ فِي رِسالَةِ الغُفْرانِ عَلَى لِسانِ الشّاعِرِ: «حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ الهِلالِيِّ»:

«إِنِّي لَأَكُونُ فِي مَغارِبِ الجَنَّةِ، فَأَلْمَحُ الصَّدِيقَ مِنْ أَصْدِقائِي، وَهُوَ بِمَشارِقِها؛ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ مَسِيرَةُ أُلُوفِ الأَعْوامِ لِلشَّمْسِ الَّتِي عَرَفْتَ سُرْعَةَ سَيْرِها فِي الدّارِ العاجِلَةِ. فَتَعالَى اللهُ القادِرُ عَلَى كُلِّ بَدِيعٍ[1]!».

---

(١) يعني بالبديع هنا: ما اخترع على غير مثال

والقُدْرَةُ — كما يَقُولُ « المَعَرِّيُّ » : « كُلَّما كُشِفَتْ بدَتْ لَها عَجائِبُ » .

أَوْ هِيَ كما يَقُولُ عَلَى لِسانِ وَزَّةِ الفِرْدَوْسِ فِي « رِسالَةِ الغُفْرانِ » أيضاً ، « حِينَ يَسْأَلُها ابْنُ القارِحِ ، بَعْدَ أَنْ رَأَى ما هالَهُ وَحَيَّرَ عَقْلَهُ : « كَيْفَ نَفَضْتِ عَنْكِ بَلَهَ الإِوَزِّ » فَتُجِيبُهُ الوَزَّةُ قائِلَةً :

« وَما الَّذِي رأَيْتَ مِنْ قُدْرَةِ بارِئِكَ ؟ إِنَّكَ عَلَى سِيفِ بَحْرٍ (١) لا يُدْرِكُ لَهُ عِبْرٌ (٢) ! » .

« فَسُبْحانَ اللهِ — كما يَقُولُ « المَعَرِّيُّ » فِي فُصُولِهِ الرَّائِعَةِ — عِدَّةَ الحَنْدَسِ (٣) ، إِذا قُسِّمَ نُقَطاً » .

* * *

وَسَتَمُرُّ طائِفَةٌ مِنْ فُنُونِ إِبْداعِهِ فِي هَذَا البابِ ، مِمَّا نَعْرِضُ لَهُ فِي مُناسَباتِهِ : فِي هٰذِهِ الرِّسالَةِ ، وفِي « حَدِيقَةِ أَبِي

---

(١) سيف البحر : ساحله (٢) العبر : الشط (٣) الحندس : الظلام .

الْعَلاء » و « قِصَص الْحَيوان » وَ « دَائِرَةِ مَعارِفِهِ » مَتَى أَذِنَ اللهُ لَها بِالظُّهُور .

أَمَّا « رِسالَةُ الْغُفْرَانِ » ، فَهِيَ — فِيما يَرَى رُوَّادُ الْأَدَبِ الْعالَمِيِّ وَمُرِيدُوهُ ، مِنْ أَعْلامِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ — آيَةُ آياتِهِ ، وَغَايَةُ غاياتِهِ ، فِي تَصْوِيرِ الْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ والافتِنانِ فِي عَرْضِ بَدَائِعِها وَخَوارِقِها فِي الْعالَمِ الْآخَرِ ، فَلْيَرْجِعْ إِلَيْها مَنْ شاء .

---

(١) وقد ظهرت ترجمة إنجليزية لها مقتبسة من الطبعة الثالثة ، تعاون مع شارح هذه الرسالة على إخراجها الأديب الانجليزى المستشرق . براكنبرى ، ولقيت من أدباء الغرب ومفكريه ، ما هى جديرة به من التقدير والاعجاب .

الفصل الأول

الطبيعة الإنسانية

١ — لو غُرْبِلَ الناس

حَسْبُنا أَنْ نَجْتَزِئَ — مِنْ هٰذا الخِضَمِّ الزَّاخِرِ — بِهٰذِهِ الأَسْطُرِ القَلائِلِ الَّتِي قَبَسْناها لِنَدُلَّ عَلَى لَمْحَةٍ خاطِفَةٍ مِنْ آراءِ فَيْلَسُوفِنا البارِعِ فِي القُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ الَّتِي صاغَتِ الطَّبْعَ الإِنْسانِيَّ كُلَّهُ مِنْ طِينَةٍ خائِنَةٍ غادِرَةٍ ، غَيْرِ وَفِيَّةٍ وَلاَ شاكِرَةٍ ، فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَقُولَ فِيهِ :

«لَوْ بُعِثَ طائِرٌ يَخْتَطِفُ ، كُلَّ مَنْ فُؤادُهُ نَطِفٌ (فاسِدٌ) لَسَلَبَ الأَرْضَ أَنامَها» .

أَوْ يَقُولَ :

لَوْ غُرْبِلَ النَّاسُ ، كَيْمَا يَعْدَمُوا سَقَطاً ... لَمَا تَحَصَّلَ شَيْءٌ فِي الغَرابِيلِ

إِلَى أَنْ يَقُولَ :

سُبْحانَ مَنْ أَلْهَمَ الأَقْوامَ كُلَّهُمُ ... أَمْراً يَقُودُ إِلَى خَبْلٍ وَتَخْبِيلِ

٢ – طريق الإصلاح

إنّ خيالَ المعرّيّ – على ما يراه روّاد أدبه – من انفساح جوانبه، واتّساع آفاقه، ورحابة عوالمه – ليكاد يُنكر على الطبيعة الإنسانيّة، أن تكون وفيّة، ولا يتردّد في إعلان حكمه في كلّ فرصة، فيقول:

مَن ادّعى أنّه وفيٌّ فلينتسبْ في سوى الأنام!

ولا يفتأ يصفها بأنها غادرة طافحة بالشرّ، لا سبيل إلى إصلاحها وتقويمها إلّا إذا أذنت القدرة الإلهيّة التي خلقتها وطبعتها على الشرّ، وجبلتها على الأذية والعدوان. كما خلقت معدن الحديد وجعلته صالحاً لصنع السيوف التي تسفك الدماء، والحدائد تُنعل بها أرجل الخيل لتحمل المغيرين السفّاحين:

والله مذ خلق المعادن عالمٌ أنّ الحدادَ البيض منها تُجعَلُ
سفكَ الدماءِ بها رجالٌ أُعصموا بالخيل تُلجم بالحديد وتُنعَلُ

الله الذي أبدع الكائنات، وخلق جواهر الأشياء،

وَخواصِّ الْمَوْجُوداتِ، هُوَ — وَحْدَهُ — الْقادِرُ عَلى إصْلاحِ هٰذا الْيَنْبُوعِ الْمُتَفَجِّرِ — فِي طَبِيعَتِنا الإِنْسانِيَّةِ الْفاسِدَةِ — ونُضُوبِ هٰذا الْمَعِينِ الْفَيّاضِ بِأَلْوانِ النِّفاقِ والطُّغْيانِ، فَهُوَ يَقُولُ:

« يَسْتَقِيمُ العالَمُ إذا أَذِنَ إلٰهُ الْمَخْلُوقِينَ » .

٣ — خيانات الأعضاء

وَلِلْمَعَرِّيِّ آراءٌ طَرِيفَةٌ فِي وَصْفِ الْخِيانَةِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْها الطَّبْعُ الإِنْسانِيُّ، وَتَقْسِيمِها وَتَتَبُّعِها بِالتَّحْلِيلِ والتَّمْحِيصِ. فَهُوَ يُقَرِّرُ أَنَّ لِلإِنْسانِ طَرِيقَيْنِ يَسْلُكُهُما لِتَحْقِيقِ ما تَأَصَّلَ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَرِيزَةِ الْخِيانَةِ: طَرِيقاً خَفِيَّةً مَسْتُورَةً، وَطَرِيقاً ظاهِرَةً مَكْشُوفَةً. فالأُولَى خِيانَةٌ يَسْتَأْثِرُ بِها الضَّمِيرُ الإِنْسانِيُّ وَحْدَهُ، وَلَيْسَ يَعْلَمُها إلَّا اللهُ الْخَبِيرُ بِما تَنْطَوِي عَلَيْهِ الْجَوانِحُ وَتَفِيضُ بِهِ الْقُلُوبُ مِنْ فُنُونِ الْغَدْرِ وَضُرُوبِ النِّفاقِ. والثّانِيَةُ تَشْتَرِكُ فِيها

أَعْضَاءِ الجِسْمِ الإِنْسَانِيِّ وَحَوَاسِّهِ ، وَتُساهِمُ فِي اقْتِرَافِها بِأَوْفَى نَصِيبٍ ، فَمِنْها :

خِيانَةُ الْعَيْنِ : إِذا رَأَتْ مالا يَجُوزُ لَها أَنْ تَراهُ ،

وَخِيانَةُ الْأُذُنِ : إِذا أَصْغَتْ إِلَى هُجْرِ الْقَوْلِ وأَذاهُ ،

وَخِيانَةُ اللِّسانِ : إِذا اخْتَرَعَ الْحَدِيثَ أَوِ افْتَراهُ ،

وَخِيانَةُ الْفَمِ : إِذا أَكَلَ الْحَرامَ أَوِ اشْتَهاهُ ،

وَخِيانَةُ الْيَدِ : إِذا اغْتالَتِ الْمالَ مِمَّنْ حَواهُ ، وَلَوْ بَدَّدَهُ صاحِبُهُ وأَفْناهُ ،

وَخِيانَةُ الْقَدَمِ : إِذا مَشَتْ فِي طَرِيقِ الْأَثَمَةِ وَسَلَكَتْ سَبِيلَ الغُواةِ .

وَكُلُّ عُضْوٍ أَعانَ صاحِبَهُ عَلَى ارْتِكابِ إِثْمٍ ، أَوْ يَسَّرَ لَهُ اقْتِرافَ خِيانَةٍ ، فَهُوَ — كَصاحِبِهِ — آثِمٌ خَوَّانٌ . .

وإِلَيْكَ النَّصَّ الْعَلائِيَّ :

« الْخِيانَةُ جِنْسانِ :

خِيانَةُ الضَّمِيرِ ، فَتِلْكَ لا يَشْعُرُ بِها غَيْرُ اللهِ .

والخِيانَةُ الظَّاهِرَةُ ، تَنْقَسِم عَلَى أَقْسامٍ :

خَانَتِ الْعَيْن : بِنَظَرٍ واطِّلاعٍ .

والْأُذُنُ : فِي إِصْغاءٍ واسْتِماعٍ .

واللِّسانُ : فِي قَوْلٍ واخْتِراعٍ .

والْفَمُ : بِأَكْلٍ مُضاعٍ .

واليَدُ : فِي اكْتِسابِ مالِ الْمِسْياعِ (الْمُضَيِّعِ لِمالِهِ)

وَالْقَدَمُ : إِذا نَقَلَها لِلْإِثْمِ ساعٍ .

وَكلُّ عُضْوٍ أَعانَكَ عَلَى الْخِيانَةِ فَقَدْ خانَ » .

٤ — خيانة الضمير

وَخِيانَةُ الضَّمِيرِ — فِيما يَرى شاعِرُنا — أَقْبَحُ الْخِيانات .

وَمَتَى فَسَدَ الضَّمِيرُ ، وَخَبُثَ الْقَلْبُ ، وساءَتِ النِّيَّةُ ، فَلَنْ يَصْدُرَ عَنْ صاحِبِها إِلَّا كُلُّ قَبِيحٍ فاسِدٍ :

« إِذا اعْتَلَّتِ الْأَفْعالُ جاءَتْ عَلِيلَة

كَحالاتِها — أَسْمَـــاؤُها والْمَصادِرُ »

وَكُلُّ ما يُبْدِيهِ الْعابِدُ مِنْ ضُرُوبِ الْعِباداتِ ، وَفُنُونِ الطّاعاتِ ، عَبَثٌ لا غَنـــاءَ فِيهِ ، مَتَى فَسَدَتِ الضَّمائِرُ ، وَساءَتِ النِّيّاتُ . فَلا فائِدَةَ مِنَ الصَّوْمِ ، إذا لَمْ تَخْلُصِ النَّفْسُ ويَطْهُرِ القلبُ ، وتَصْدُقِ الْعَقِيدَةُ . وَلَنْ يَصِحَّ الصَّوْمُ — كَمَا يَقُولُ — إلّا لِمَنْ جاهَدَ وَصامَ عَنْ لُحُومِ النّاسِ » .

« وَصَوْمُ النِّيَّةِ » — فِيما يُقَرِّرُ وَيُثْبِتُ — « أَفْضَلُ الصِّيام ، لِأَنَّ الْجَوارِحَ تَتْبَعُ الْقَلْبَ ، وَرُبَّما صامَتِ الْيَدُ ، وأَفْطَرَ اللِّسانُ . . . » .

وَماذا تُجْدِي حَلاوَةُ اللِّسانِ إذا فَسَدَ الضَّمِيرُ ، وَخَبُثَ الْجَنانُ (الْقَلْبُ) ! وَلَنْ يَنْفَعَ أَحَداً مَعْسُولُ الْكَلامِ ، إذا أَضْمَرَ الصّاحِبُ لِصاحِبِهِ الْغَدْرَ والْخَدِيعَةَ .

وَفِي هٰذا يَقُولُ مُتَأَلِّماً : « أَمّا الْفَمُ فَمِسْكُ الْمَنْطِقِ وأَمّا نِيَّةُ الْخِلِّ فَقَطِران » .

وَمَتَى كانَ الطَّبْعُ الْإِنْسانِيُّ الَّذِي يَرْمِزُ إِلَيْهِ بِالْقَلْبِ مَرَّةً ، وبالضَّمِيرِ ثانِيَةً ، وبِالْغَرِيزَةِ ثالِثَةً وَبِالْمُهْجَةِ ، أو النَّفْسِ ، أَوِ الْفُؤادِ الخ ، مادامَ ذٰلِكَ الطَّبْعُ — أَوْ ما شِئْتَ فَسَمِّهِ مِنْ أَسْماءٍ — هُوَ الْمُحَرِّكَ لِلْجِسْمِ وَأَعْضائِهِ ، فَعَلَيْهِ وَحْدَهُ تَقَعُ تَبِعاتُ كُلِّ ما يَصْدُرُ عَنْها مِنْ جَرائِمَ وآثامٍ .

فَهُوَ يَقُولُ :

« وَلَيْسَ لِلِّسانِ ذَنْبٌ ، إِنَّما الذَّنْبُ لِمُحَرِّكِ اللِّسانِ ، كَفارِسٍ طَعَنَ بِرُمْحٍ ، فَقَتَلَ غَيْرَ مُسْتَحِقٍّ لِلْقَتْلِ ، فالْجانِي الْفارِسُ ، والرُّمْحُ غَنِيٌّ عَنِ الاعْتِذارِ[1] . واذا سَعَتْ الْقَدَمُ

---

(١) لا يسع الباحث أن يغفل الاشارة فى هذا المقام إلى ما أبدعه الفيلسوف الأندلسى : « أبو بكر محمد بن طفيل » (المتوفى عام ٥٨١ هـ) . حين عرض فى رسالته « حى بن يقظان » ، للحديث عن الروح والجسم ، فقد شرح فى لباقة بارعة ، كيف أطال « ابن يقظان » — بطل القصة — تأمله ، بعد أن ماتت الظبية التى أرضعته ، وكيف انتهى به تفكيره إلى طائفة من الحقائق الرائعة فعرف أن هذا الجسد — بجملته — إنما هو كآلة لذلك (الروح) ، وبمنزلة العصى التى اتخذها هو لقتال الوحوش » .

إلى أن قال :

« فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان — وإن كان كثيرا بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته — فإنه واحد بذلك الروح ، الذى مبدؤه من قرار

إلى قبيح ، فالجريمة لناقلها ، مثل رجل ركب فرساً ، فأخاف سبيلاً فاستوجب العقوبة الرجل دون الجواد . وإذا خانت اليد ، فالباسط لها الخبث الخؤون ، كالمغترف من إناء جاره بإناء ، ما علم إناؤه بما كان . وإذا نظرت العين ، فتلك المصباح استعان بها السارق على اجتلاء بز وجهاز . . . الخ » أو يقول :

واحد ، وانقسامه فى سائر الأعضاء منبعث منه ، وأن جميع الأعضاء إنما هى خادمة له ، أو مؤدية عنه .

وأن منزلة ذلك الروح فى تصريف الجسد ، كمنزلة من يحارب الأعداء بالسلاح التام ، أو يصيد جميع صيد البحر والبر ، فيعد لكل جنس آلة يصيده بها » .

وهكذا إلى أن يقول :

« كذلك ، ذلك الروح الحيوانى واحد .

وإذا عمل : بآلة العين — كان فعله إبصارا .

وإذا عمل : بآلة الأذن — كان فعله سمعا .

وإذا عمل : بآلة الأنف — كان فعله شمّا .

وإذا عمل : بآلة اللسان — كان فعله ذوقا .

وإذا عمل : بالجلد واللحم — كان فعله لمسا .

وإذا عمل : بالعضو — كان فعله حركة .

وإذا عمل : بالكبد كان فعله غذاء واغتذاء .

ولكل واحد — من هذه — أعضاء تخدمه ، ولا يتم لشىء من هذه فعل إلا بما يتصل إليها من ذلك الروح » .

وقد قبسنا هذه القصة الرائعة فيما قبسناه من القصص العربية للأطفال .

« لَوْ خاف الْجفنُ لسَهرَ ، ولكِنَّ الفُؤاد أثِرٌ »

فالطَّبيعَةُ أو الغرِيزَةُ الإنسانِيَّةُ — كما يراها شاعِرُنا — تستَعِينُ بِكُلِّ ما تَملِكُهُ مِنْ عتادٍ وقُوَّةٍ جُثمانِيَّةٍ لِتَبْلُغَ ما تتوخّاهُ مِنْ آرابٍ خائِنَةٍ فاجِرَةٍ ، ونقائِصَ مَسْتُورَةٍ وظاهِرَةٍ .

وَلِلمعَرّى — في مُحاوَرَتِهِ مع نَفْسِهِ — لفتاتٌ بارِعَةٌ يُحْسِبُنا مِنها قوْلهُ :

« اللهَ خلَقنى لأمرٍ ، حاوَلتُ سواه ، فألْفَيْت المُبْهَم بغَيْرِ انفراجٍ ، وفِطامُ ابن الثمانين أيْسَرُ مِنْ فِطام ابْنِ الأعوامِ ، وأعْيا تأديبُ الهَرِمِ على الأرباه . قد خلَصْتُ من الحِبالَة ، فكَيْفَ عُدْتُ ، وعَلى عِلمٍ وضَعْتُ القدَمَ فى النّار » . وهنا يقول مُبْدِعاً :

« أسعَى لِلنفْسِ فيما تكرَهُ ، كأنى لها غاشٌ .
أنا وهِىَ ، شىءٌ لا يَنماز .
نتَرادُّ المَلامَةَ كأنَّنا اثنانِ .

ثُمَّ يَقُولُ: «إِنْ جَنَتْ عَلَيَّ أَوْ جَنَيْتُ، كَيْفَ يَقَعُ القِصَاصُ»؟

٥ — غريزة الجسم

على أنه لا يُعْفِى الجسمَ أحيانا من اللَّوْم والتعْنيف، فيقولُ:

فكيف لا تَخْبُثُ النفسُ التى جُعِلَتْ
من جِسْمِها فى وِعاء كُلُّه دَنَسُ

أو يقول:

«فإن لأجساد الأنام غرائزاً
إذا حَرَّكتْ للشَّرِّ صاحبَها جاء»

والجسم بعد كُلِّ شيء هو — فيما يراه — الأداةُ التى يُحقِق بها الطبعُ الإنسانىّ ما يتوخّاه، من شروره وأذاه.

٦ — ثبات الطبع

وجُمْهور قوله وفَلْسفته تُؤَيِّد رأيَهُ فى أن الطبعَ راسخٌ رسوخَ الجبال، وأن كلَّ محاولةٍ لتحويله، إنما هى محاولةٌ عَقيمةٌ لا تُجدِى، فهو تارةً يُشَبِّهُهُ بالهِضاب فيقول:

«والطبعُ يثبُتُ كالهضابِ، ومَنْ يرُمْ
نقلاً له، يعجزْ، ويعْيَ بنقْلِهِ»

ثُمَّ ينعتُه بالفسادِ، ويعلنُ يأسَه مِنْ إصلاحِهِ، فيقولُ:

«وَجبلَّةُ النّاسِ الْفسادُ، فضلَّ مَنْ
يسمُو بحكمتِهِ إلى تهذيبها»

أوْ يقولُ:

«فلا تأمُلْ مِنَ الدُّنْيا صلاحًا فذاكَ هوَ الَّذي لا يُسْتطاعُ»

٧ — الطبع واللون

وَتارةً يُمثّلُهُ باللونِ، وَيُمثِّلُ مَنْ يُحاول تغييرَ طبْعِهِ بِمَنْ يُحاولُ تغييرَ لوْنِهِ، وَيسْأَلُ نفسَهُ سُؤَالَ الْيائِسِ:

«أيستَطِيعُ الْغُرابُ أنْ يُبدِّلَ سوادَ لوْنِهِ، مَهْما بذَلَ مِنْ جُهْدٍ؟».

وَيقُولُ:

«وما فسَدتْ أخلاقُنا باخْتيارِنا
ولـكنْ بأمْرٍ سبَّبتْهُ الْمقادِرُ

فَقُلْ لِلْغُرابِ الْجَوْنِ، إِنْ كانَ سامِعا :

أَأَنْتَ عَلَى تَغْيِيرِ لَوْنِكَ قادِرُ ؟»

أَوْ يَقُولُ :

«أَتَصِحُّ تَوْبَةُ مُدْرِكٍ مِنْ كَوْنِهِ[1]

أَوْ أَسْوَدٍ مِنْ لَوْنِهِ فَيَتُوبا»

٨ — الطبع والهوى

وَرُبَّما دارَ بِأَخْلادِنا أَنْ نَسْأَلَهُ لَعَلَّهُ يُفْضِي إِلَيْنا بِمَصْدَرِ هٰذِهِ النَّزَعاتِ الشِّرِّيرَةِ ، والْأَهْواءِ الْجامِحَةِ ، وَمِنْ أَيِّ مَعِينٍ تَنْبُعُ ، وَمِنْ أَيِّ بُذُورٍ تَنْبُتُ ، لَعَلَّنا نَقْتَلِعُ تِلْكَ الْبُذُورَ الْفاسِدَةَ ، وَنَسْتَأْصِلُ دَواعِيَها ، فَإِذا وَجَّهْنا إِلَيْهِ هٰذِهِ الْأَسْئِلَةَ . أَجابَنا أَرْوَعَ إِجابَةٍ فَنِّيَّةٍ . فَمَثَّلَ لَنا الطَّبْعَ الْإِنْسانِيَّ بِالْماءِ ، وَمَثَّلَ لَنا ما يَنْشَأُ فِيهِ مِنْ نَوازِعَ وَأَهْواءَ ، بِالْفَقاقِيعِ الَّتِي تَنْشَأُ عَلَى سَطْحِهِ ، فَقالَ :

وَالْقَلْبُ كَالْماءِ ، والْأَهْواءُ طافِيَةٌ

عَلَيْهِ ، مِثْلُ حَبابِ الْماءِ فِي الْماءِ

(١) المعنى : هل يصح أن يتوب كائن موجود من أنه كان ووجد ؟

٩ – طبائع الأجيال

فَإِذَا سَأَلْنَاهُ : « خَبِّرْنَا يَا شَيْخَ الْمَعَرَّة : مَتَى فَسَدَتِ النِّيَّاتُ ، وارْتَكَسَتِ الطَّبَائِعُ ؟ » أَجَابَنَا مُتَثَبِّتًا عَابِسًا :

مَضَى الزَّمَانُ وَنَفْسُ الْمَرْءِ مُولَعَه

بِالشَّرِّ ، مِنْ قَبْلِ هَابِيلٍ وَقَابِيلِ

أَتُرَاهُ يَعْنِي أَنَّ الشَّرَّ مُتَأَصِّلٌ فِي النَّفْسِ مُنْذُ آدَمَ : والدِ « هَابِيلَ » و « وقَابِيلَ » ؟ مَنْ يَدْرِي ! فَلَعَلَّهُ يَرْمِي إِلَى أَبْعَدَ مِنْ هٰذَا الْمَعْنَى وأَعْمَقَ . وَلَعَلَّهُ يَعْنِي أَنَّ الشَّرَّ أَقْدَمُ مِمَّا حَسِبْنَا ، فَلَيْسَ « آدَمُ » — فِي مَذْهَبِ الْعَقْلِ عِنْدَهُ — أَوَّلَ إِنْسَانٍ . فَلَعَلَّ أَوَادِمَ أُخَرَ قد جاءوا قَبْلَهُ فِي غَابِرِ الْأَحْقَابِ ، فَهُوَ يَقُولُ :

« وما آدمٌ — فِي مَذْهَبِ الْعَقْلِ — وَاحِدٌ

وَلٰكِنَّهُ — عِنْدَ الْقِيَاسِ — أَوَادِمُ »

أَلَيْسَ هٰذَا — فِي مَذْهَبِ الْعَقْلِ مُمْكِنًا ؟ بَلَى وهُوَ مَيْسُورٌ مَعْقُولٌ :

« جائزٌ أنْ يكونَ « آدمُ » هذا

قبلَهُ آدمٌ على إثرِ آدم »

فإذا سألناهُ متعجبين: « ألمْ يصلحْ في أيِّ زمنٍ؟ »
أجابنا: « كلا لمْ يصلحِ الطبعُ في أيِّ عصرٍ من العصورِ،
ولمْ يكرُمْ في أي جيلٍ من الأجيال »، قال:

« فالطبعُ في كلِّ جيلٍ طبعُ ملامةٍ

وليسَ في الطبعِ مجبولٌ على الكرمِ »

ثمَّ قالَ لنا:

هذهِ إرادةُ اللهِ وقضاؤُهُ، فلنذعنْ لهذهِ الإرادةِ
ولا نعترضْ، فإنها:

جبلَّةٌ بالفسادِ واشجةٌ إنْ لامها المرءُ لامَ جابلَها

فإنْ سألناهُ: « وهل اختصتْ بالغدرِ والخيانةِ أمةٌ
دونَ أمةٍ؟ » أجابنا متثبتاً: « كلا، بلْ همْ في الغدرِ
والخيانةِ سواءٌ:

أَحْلُلْ بِمَنْ شِئْتَ ، لا يُعْدِمْكَ نائِبَةً
خانَ الْيَمانُونَ طُرًّا والشَّآمُونا

فَإِنْ قُلْتَ لَهُ : « لَعَلَّ فِي غَيْرِ أَهْلِ الشَّامِ والْيَمَنِ ، مَنْ يُرْضِيكَ مِنَ الشُّعُوبِ » قالَ عابِساً :

« كُنْ مِنَ الرُّومِ ، أَوْ مِنَ التُّرْكِ ، أَوْ مِنَ الْفُرْسِ ، أَوْ مِنْ أَيِّ جِنْسٍ مِنْ أَجْناسِ الْبَشَرِ ، واتَّخِذْ أَيَّ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ الأَنامِيِّ ، فَإِنَّ هٰذِهِ الصُّورَةَ دَلِيلٌ عَلَى مَوْفُورِ شَرِّكَ ، وَلُؤْمِ طَبْعِكَ ، وَما دُمْتَ عَلَى صُورَةِ الإِنْسانِ ، فَهِيَ بِلا شَكٍّ :

صُورَةٌ خَبَّرَتْ بِأَنَّكَ مَجْبُو لٌ عَلَى الشَّرِّ ، والْمُهَيْمِنُ خازِي
واخْتِلافٌ مِنْ مَنْصِبٍ وَبِلادٍ واتِّفاقٌ عَلَى رِضاً بِالْمَخازِي

٨ — الخير والشر

إِنَّ الشَّرَّ — فِيما يَرى « أَبو الْعَلاءِ » — أَصْلٌ تالِدٌ فِي الطَّبْعِ ، والْخَيْرَ عارِضٌ طَرِيفٌ مُسْتَجَدٌّ عَلَيْهِ ، كَما أَنَّ الظُّلْمَةَ أَصْلٌ والنُّورَ طارِئٌ :

وكأن الشرَّ أصلٌ فيهم   وكذا النورُ حديثٌ في الظُّلَمِ

وَهُوَ يرى أنَّ كلَّ ما يكتنفُ الباحثَ كفيلٌ بإقناعِهِ بصحةِ هذا الزعمِ.

فالطِّباعُ مجبولةٌ على الشرِّ: طِباعُ الأغنياءِ والفقراءِ جميعاً. وهذا دليلٌ على أنها تستقي مِنْ معينٍ واحدٍ. انظُرْ إلى ذلك الفقيرِ المُعدِمِ: كيفَ يجزي حمارَهُ الَّذي يحملُ عليهِ أثقالَهُ أسوأَ الجزاءِ، دونَ أنْ يُسلِفَ إليهِ الحمارُ إساءةً أو يجترحَ ذنباً.

إنهُ ليرى حمارهُ قدْ جهدهُ طولُ سيرهِ، وأعجزهُ ثقلُ حملِهِ، فوقفَ برهةً قصيرةً لعلَّهُ يستجمعُ قوَّتهُ ويستأنفُ سعيهُ، فلا يكادُ الحمارُ يتوانى عنِ السيرِ حتَّى يثورَ صاحبُهُ عليهِ مغيظاً مُغضَباً. وقدْ نسيَ في لحظةٍ واحدةٍ كُلَّ ما أسلفَهُ إليهِ ذلكَ الخادمُ الصابرُ مِنْ صنيعٍ، فيهوي على جسمِهِ بعصاهُ دونَ أنْ تأخذَهُ فيهِ شفقةٌ أو رحمةٌ. ذلكَ

ما يفعله الفقير ، وهو أقل من الغنى شراً (١) ، وأدنى إلى تفهم معانى الرحمة والشفقة ومزاياهما . فلننصت إلى بيان المعرى . ولنمتع أذهاننا بهذا اللوح الفنى الصادق الذى أبدع فيه تصوير تلك المعانى الرائعة ، إذ قال :

ألم تر أن الخير يكسبه الحجا
طريفاً ، وأن الشر فى الطبع متلد
لقد رابنى مغدى الفقير بجهله
على العير ضرباً ، ساء ما يتقلد
يحمله ما لا يطيق ، فإن ونى
أناخ على ذى فترة (٢) يتجلد

٩ — الطبع والخلق

على أن «أبا العلاء» يرى — أن الأخلاق تختلف وتتفاوت ، وفى الشر خيار ، فمنها المذموم والممدوح ، والنافع والضار .

---

(١) قال « غنينا من عفاف النفس أفقرنا » .
(٢) الفترة : الهدنة ، والضعف ، والانكسار .

والقاسي والرحيم ، وما إلى ذلك من حميد الصفات ومرذولها . وهذه الأخلاق تأتلف وتختلف ما شاءت لها خصائصها وظروفها وملابساتها ، ولكن الطبع الفاسد الذي صيغت منه الجبلة الإنسانية واحد لم يتغير جوهره مهما تختلف فروعه ومظاهره أو تأتلف في بعض النزعات المستحدثة الطارئة .

الطبع واحد لا يتغير معدنه أبداً مهما يتميز هذا عن ذاك في الأخلاق التي ارتضاها الأناسي في حياتهم وتواضعوا عليها وألفوها . فهو يقول :

إن مازت الناس أخلاق يعاش بها
فإنهم — عند سوء الطبع — أسواء

أو يقول :

والخلق شتى . ولكن ضمهم خلق
للشر ، لم يلق بين الناس إفرازا

أَوْ يقولُ :

تَفَرَّعَ النَّاسُ عَنْ أَصْلٍ بِهِ دَرَنٌ فالعالَمُونَ إذا مَيَّزْتَهُمْ شَرَعٌ (١)

أَوْ يَقولُ :

سَجايا كُلُّها غَدْرٌ وَخُبْثٌ تَوارَثَها أُناسٌ عَنْ أُناسِ

أَوْ يقولُ :

لَقَد فَعَلُوا الْخَيْرَ الْقَلِيلَ تَكَلُّفاً

وَجاءوا الَّذِي جاءوهُ مِنْ شَرِّهِمْ طَبْعا

أَوْ يقولُ :

وَفِي الأَصْلِ غِشٌّ وَالفُرُوعُ تَوابِعٌ ،

وَكَيفَ وَفاءُ النَّجْلِ والأَبُ غادِرُ

أَوْ يقولُ :

فَلاَ تَعْذُلِينا كُلُّنا ابن لَئِيمَةٍ

وَهَلْ تَعْذُبُ الأَثْمارُ إِنْ لَؤُمَ الغَرْسُ

أَوْ يَقُولُ :

وَالأَرْضُ لَيْسَ بِمَرْجُوٍّ طَهارَتُها

إلاَّ إذا زالَ عَنْ آفاقِها الأَنَسُ

---

(١) سواء .

سيّانِ في ذلك الرّجل والمرأة : فهُو يقول :

جَرَى النّاسُ مَجْرَى وَاحِداً في طِباعِهِمْ
فَلَمْ يُرْزَقِ التّهْذيبَ أُنْثى وَلا فَحْلُ

أو يقول :

فأُفٍّ لعَصْرَيْهِمْ نَهارٍ وَحِندسٍ
وَجِنْسَيْ رِجالٍ مِنهُمُ وَنِساءِ

أو يقول :

كُلُّنَا غادِرٌ يَميلُ إلى الظّلْـمِ ، وَصَفْوُ الأيّام للتّعْكيرِ
وَرِجالُ الأنامِ مِثْلُ الغَوَانِي غَيْرَ فَرْقِ التأنيثِ وَالتّذْكيرِ

١٠ — الجنس والنوع

وَلا يَقِفُ سُخْطُ المعَرّي عِنْدَ هذا الحَدّ. بَلْ هُوَ يَرْتقِي إلَى لَعْنِ الجِنْسِ وَالنّوْعِ . يَعْني جِنْسَ الأَحْياء وَما يَتَفَرّعُ عَلَيْهِ مِنْ أنْوَاعِ الحَيَوَانِ وَالحَشَراتِ وَالإنْسانِ ، فَيَقُولُ :

أرَى الحَيَّ جِنْساً ظَلَّ يَشْمَلُ عالَمِي
بِأنْوَاعِهِ : لا بُورِكَ النّوْعُ وَالجِنْسُ

ماذا ؟ بَلْ إنّ شَكّهُ لَيَغْتَلِي حَتّى يَرْقَى إلَى العالَمِ العالي :

كواكب وسيارات ، وما يمكن أن تحويه من كائنات ، فيسأل : هل تختلف الكواكب والسيارات كما نختلف :

وهل الكواكب مثلنا في ديننا
لا يتفقن ، فهائد ، أو مسلم

وهل يمت بعضها إلى بعض بصلات المصاهرة والزواج وما إلى ذلك ؟ وهل تصلي كما نصلي ، وتفجر كما نفجر :

وتكذب ؟ إن المين في آل آدم
خلائق جاءت بالنفاق وبالعهر

* * *

على أنه بعد أن يلمن الأنواع والأجناس مجتمعة ، يفرد الجنس الإنساني بأوفر قسط من هذه اللعنات فيقول :

فإن كان في دنياك للشر معدن
فإنهم — في ذاك — أزكى المعادن

وَيَقُولُ :

شَرُّ أَشْجارٍ — عَلِمْتُ بِها — شَجَراتٌ أَثْمَرَتْ ناسا
حَمَلَتْ بيضاً وَأَغْـــرِبَةً وَأَتَت بِالْقَوْمِ أَجْناسا
كُلُّهُمْ أَخْفَتْ جَوانِحُهُ مارِداً — فِي الصَّدْرِ — خَنّاسا
لَمْ تَسِقْ[1] عَذْباً وَلا أَرِجاً بَلْ أَذِيَّاتٍ وَأَدْناسا

١١ — مُرَكَّب النقص

وَلا يَفوتُهُ أَنْ يُنَدِّدَ بِحُقَراءِ النُّفُوسِ الَّذِينَ يَلْجَئُونَ إِلَى نَقِيصَةِ الْكِبْرِياءِ ، لِيَسْتُرُوا بِها ما تَأَصَّلَ فِي جِبِلَّتِهِم وامْتَزَجَ بِفِطْرَتِهِم مِنْ شُعُورٍ كامِنٍ بِالْهَوانِ والنَّقْصِ ، فَيَقُولُ فِي لُزُومِيّاتِهِ :

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَصْغَرَهُمْ
مابانَ مِنْكَ عَلَيْهِمُ كِبْرُ

وَفِي هٰذا الْبَيْتِ — كَما يَرَى الْقارِئُ — صُورَةٌ مِنْ أَدَقِّ الصُّوَرِ ، تُفَسِّرُ مُرَكَّبَ النَّقْصِ وَتُجْلُوهُ فِي إِيجازٍ فاتِنٍ

---

(١) لم تحمل .

بارعٍ ، وبيانٍ سهلٍ مُمتنعٍ رائعٍ.

***

عَلَى أنَّهُ قد عرَضَ لهُ بالتَّفصيلِ في سقطِ الزَّندِ قبلَ أنْ يُوجزَهُ في اللُّزومياتِ ، وَجلاهُ في رائيَّتِهِ المعروفةِ وَشرحَ مِنْ دقائقِهِ المُستترةِ وَخفاياهُ الغامضةِ ، فنسَبَ تواضعَ الكاملينَ إلى موفورِ ثقتِهمْ بأنفسِهمْ عَلَى حينَ يَخشَى غيرُهمْ مِنَ النَّاقصينَ أنْ يتواضَعُوا فيجرُؤَ عليهِمُ المُجترئُونَ ، وَينتقِصهُمُ العيَّابُونَ ، ورأَى — وَيا صدقَ ما رأَى — أنَّ مجادةَ النَّفسِ تتنافَى مَعَ نقيصةِ الكبرياءِ ، كَمَا يتنافَى الصِّبا مَعَ الشَّيخُوخةِ ، وَأنَّ غُلُوَّ الإنسانِ في خَلَّةٍ مِنهُما ، دليلٌ عَلَى نقصِهِ في الأُخرَى ، كما أنَّ طولَ اللَّيلِ يَنتقِصُ مِنْ ساعاتِ النَّهارِ. ثُمَّ قابَلَ بيْنَ أناةِ المُتواضعِينَ ورجاحةِ أحلامِهِم ، وَبيْنَ طيْشِ المُتكبِّرينَ وَخِفَّةِ عُقُولِهِم وَضربَ للأوَّلِينَ مَثَلَ الجمرِ ، وَلِلآخرِينَ مثلَ الشَّررِ : أوَّلُهُما ثابتٌ مُستقِرٌّ ، والآخرُ طائشٌ لا ثباتَ لهُ ولا قرارَ

وَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ :

عَلَوْتُمُ ، فَتَواضَعْتُمْ عَلَى ثِقَةٍ ،
لَمَّا تَواضَعَ أَقْوامٌ عَلَى غَرَرِ

والْكِبْرُ والْحَمْدُ ضِدّانِ، اتِّفاقُهُما
مِثْلُ اتِّفاقِ فَتاءِ السِّنِّ وَالْكِبَرِ

يَجْنِي تَزايُدُ هٰذا مِنْ تَناقُصِ ذا
وَاللَّيْلُ إِنْ طالَ غالَ الْيَوْمَ بِالْقِصَرِ (١)

خَفَّ الْوَرَى وَأَقَرَّتْكُمْ حُلُومُكُمُ
وَالْجَمْرُ تُعْدَمُ فِيهِ خِفَّةُ الشَّرَرِ

١٢ — الوعظ وسامعوه

وَهُوَ يَلْعَنُ جُمْهُورَ الْواعِظِينَ الَّذِينَ يَتَصَدَّرُونَ لِوَعْظِ النَّاسِ ، وَهُمْ يُضْمِرُونَ عَكْسَ ما يُعْلِنُونَ ، فَيَقُولُ :

طَلَبَ الْخَسائِسَ وارْتَقى فِي مِنْبَرٍ
يَصِفُ الْحِسابَ لِأُمَّةٍ لِيَهُولَها

(١) فى هذا البيت لفتة إلى قول ابن الرومى فى وصف أصلع :
« يأخذ أعلى الوجه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله »

وَيَكُونُ غَـــيْرَ مُصَدَّقٍ بِقِيامَةٍ
أَضْحَى يُمَثِّلُ فِي النُّفُوسِ ذُهُولَها

أَو يقولُ :

رُوَيْدَكَ قَدْ غُرِرْتَ ، وأَنْتَ نَدْبٌ ،
بِصاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّســـاءَ
يُحَرِّمُ فِيكُمُ الصَّهْباءَ صُبْحًا
وَيَشْرَبُها عَلَى عَمْـــدٍ مَساءَ
يَقُولُ : « لَقَدْ غَدَوْتُ بِلا كِساءٍ »
وفِي لَذّاتِهـــا رَهَنَ الْكِساءَ
إِذا فَعَـــلَ الْفَتَى ما عَنْهُ يَنْهَى ،
فَمِنْ جِهَتَيْنِ لا جِهَـــةٍ أَساءَ

وَمَتَى انْتَهَى شَيْخُنَا مِنْ إِهْدَاءِ تِلْكَ اللَّعَنَاتِ الْفَنِّيَّةِ إِلَى سَادَاتِنَا رِجَالِ الْوَعْظِ ، الْتَفَتَ إِلَى سَامِعِي مَوَاعِظِهِمْ فَأَنْحَى عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا لاحَتْ لَهُمُ الْغَنَائِمُ انْدَفَعُوا إِلَيْهَا فَاتِكِينَ ، كَمَا تَنْدَفِعُ الْأُسُودُ الضَّارِيَةُ إِلَى تَمْزِيقِ صَيْدِهَا .

فإنْ وَجَّهتَهُمْ إلى الخيرِ تبلَّدَتْ قُلُوبُهُمْ . وأشبهوا الحمير فى غبائِها وتَرَدُّدِها وبلاهتِها ، فقال :

يَرْقَى على المنبرِ العالى خطيبُهُمُ
وإنما يعظُ الآسادَ والنُّمُرا

هُمُ السِّباعُ إذا عَنَّتْ فرائسُها ،
وإنْ دعوتَ لخيرٍ حُوِّلُوا حُمُرا

على أنَّهُ — مع هذا كلِّهِ — يرضى بالحقيقةِ الرَّاهنةِ ، ويُوصِى بأنْ نقبلَ النَّاسَ على عِلاَّتِهِمْ ، فيقولُ :

هذِى طباعُ النَّاسِ معرُوضةٌ فخالِطُوا العالَمَ أوْ فارِقُوا

ثُمَّ يرْتَقِى فى فلسفتِهِ العاليةِ فى تهْوِينِ مُشْكِلاتِ الحياةِ ، فيقولُ :

إن جدَّ عالمُكَ الأرضِىُّ فى نبأٍ يغشاهُمُ ، فتمثَّلْ جِدَّهُمْ لعِبا

١٣ — الـكلبُ والثُّعبانُ

فإذا قُلْتَ لَهُ : « ليتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ فى مثلِ صفاءِ طبعِكَ ، وَبُعْدِكَ عَنِ الأرْجاسِ والدَّنايا» زَوَى عنكَ وَجْهَهُ

غاضباً . وَقالَ : ما أَنا بِبِدْعٍ فِي النّاسِ . وَما طَبْعِي بِمُخْتَلِفٍ عَنْ طَبْعِكَ وَطَبائِعِ غَيْرِكَ مِنَ الْآدَمِيِّينَ . فَإِذا كانَ ثَمَّةَ فَرْقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، فَهُوَ أَنَّنِي أَشَدُّكُمْ إِيغالاً فِي النَّقْصِ والظُّلْمِ والْإِقْبالِ عَلَى الدُّنْيا الْخادِعَةِ والْبُعْدِ عَنِ الصَّلاحِ . فَأَنا أَظْلِمُ كَما تَظْلِمُونَ ، وأَخُونُ كَما تَخُونُونَ ، وَأُسْهِمُ فِي الْبَغْيِ بِمِثْلِ ما تُسْهِمون :

ظَلَمْتُ ، وَكُلُّنا جانٍ ظَلُومٌ وَطَبْعُكَ فِي الْخِيانَةِ مِثْلُ طَبْعِي

وَأُفْتَنُ بِالْحَياةِ الْخادِعَةِ كَما تُفْتَنُونَ ، وَأَعِيشُ بِالْخِداعِ كَما تَعِيشُونَ :

أَهْوَى الْحَياةَ ، وَحَسْبِي مِنْ مَعايِبِها

أَنِّي أَعِيشُ بِتَمْوِيهٍ وَتَدْلِيسِ

وَأُشْبِهُ الْكَلْبَ كَما تُشْبِهُونَ ، وَأَجْرِي وَراءَ الدُّنْيا كَما تَجْرُونَ :

كِلابٌ تَعاوَتْ أَوْ تَعاوَتْ لِجِيفَةٍ

وَأَحْسَبُنِي أَصْبَحْتُ أَلْأَمَها كَلْبا

وَما أَتَمَنَّى أَنْ يَسِيرَ أَحَدٌ عَلَى غِرارِى ، فَأَنا شَرٌّ مَنْ وَلَدَتْ حَوَّاءُ مِنَ الأَبْناءِ :

لَوْ كَانَ كُلُّ بَنِى « حَوَّاءَ » يُشْبِهُنِى
فَبِئْسَ ما وَلَدَتْ فِى الْخَلْقِ « حَوَّاءُ »

وأَنا أَوَّلُ مَنْ يَبْدَأُ بِذَمِّ نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ أَذُمَّ غَيْرِى :

بَنِى الْأَرْضِ مَهْلاً ، إِنْ ذَمَمْتُ فَعالَكُمْ
فَإِنِّى بِنَفْسِى لا مَحالَةَ أَبْدَأُ

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى فَسادِ طَبْعِنا مِنْ أَنَّنا إِذا سَمِعْنا صادِقاً يَنْعَتُ أُصُولَنا بِاللُّؤْمِ ، ثارَتْ ثائِرَتُنا :

وَغَضِبْنا مِنْ قَوْلِ زاعِمِ حَقٍّ إِنَّنا فِى أُصُولِنا لُؤَماءُ

وَما أَشْبَهَنِى بِالْحَيَّةِ فِى الظُّلْمِ والْعُدْوانِ ، قالَ :

« فَأَنا ابْنُ الْعَفَرِ ، الْمُسْتَوْدَعِ فِى الْأَرْضِ ، وأَبُو الْعَثَرَاتِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَى رَبِّ الْعَرْشِ . وَأَخُو الْجِنايَاتِ الْمُوجِبَةِ نَقِيضَ الْعَفْوِ .

أَظْلَمُ مِنْ بِنْتِ الْجَبَلِ (الْحَيَّةِ) أُمِّ الْعُثْمانِ (ابنِ الحَيَّةِ)

أُخْتِ الصِّلِّ (وَهُوَ الْخَبِيثُ مِنَ الْحَيَّاتِ) الصُّؤُولِ . أَظْلِمُ عَلَى التَّجْرِبَةِ وَأَلُومُ الْأَغْمَار » .

١٤ — الطبع والعقل

فإذا عَنَّ لباحثٍ أَنْ يسأَلَهُ : « أَلَمْ تُشِدْ فى جمهرةِ أَقْوالِكَ بالْعقْلِ ، وتفنَّنَ فِي تمْجيدِهِ والنُّصْحِ بِاتِّباعِهِ ؟ أَلَمْ تَقُلْ فِي رسالَةِ الْغُفْرَانِ : « ومَتَى جُعِلَ الْمعْقُولُ هادِياً ، نقعَ مِنَ الْغُلَّةِ صادِيًا ؟ » .

أَلَمْ تقلْ لَنَا فِي لزُومِيَّاتِكَ :

مُخالِفُ الطَّبْعِ مَعْقُولٌ خُصِصْتَ بِهِ

فاقبَلْ ، إذا ما نَهاكَ الْعقْلُ أَوْ أَمرَا

فَكَيْفَ لا تَتَّبِعُهُ لِيَهْدِيكَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَيُنْقِذَكَ مِنْ طَبْعِكَ الذَّمِيمِ ؟ » أَجابَنا فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ : « إِنَّ الْعقْلَ فِي جُمْهُورِ شِعْرِى وَنَثْرِى ، نِبْرَاسٌ يُنِيرُ طَرائِقَ الْحَياةِ الدَّاجِيَةِ ، وَيَحُلُّ الْمُعْضِلَاتِ الْفِكْرِيَّةَ الْعَوِيصَةَ ، وَلٰكِنَّهُ عاجِزٌ أَمامَ الطَّبْعِ الَّذِى مُزِجَتْ بِهِ مُهَجُ الْأَنَامِ .

لاَ يَكادُ يَصْطَرِعُ مَعَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ دامِياً مَهْزُوماً :

يَتَحارَبُ الطَّبْعُ الَّذِى مُزِجَتْ بِهِ
مُهَجُ الْأَنامِ وَعَقْلُهُمْ فَيَقُلُّهُ

وَكَمْ يَنْهانِى عَقْلِى عَمَّا يَسُوءُ ، وَيَجْذِبُنِى إِلَيْهِ طَبْعِى الذَّمِيمُ :

نَهانِى عَقْلِى عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَطَبْعِى إِلَيْها بِالْغَرِيزَةِ جاذِبِى

وَما يُجْدِى اللُّبُّ إِذا أَرادَ أَنْ يُنَقِّىَ لَوْنَ الْغُرابِ ، أَوْ يَسْتَأْصِلَ الْغَرائِزَ الْمُتَوَشِّجَةَ فِى قَرارَةِ نُفُوسِنا :

وَاللُّبُّ حاوَلَ أَنْ يُهَذِّبَ أَهْلَهُ
فَإِذا الْبَرِيَّةُ ما لَهـا تَهْذِيبُ

مَنْ رامَ إِنْقاءَ الْغُرابِ، لِكَى يَرَى
وَضَحَ الْجَناحِ أَصابَهُ تَعْذِيبُ

إِنَّ الطَّبْعَ أَقْوَى مِنَ الْعَقْلِ وَأَشَدُّ مِراساً . فَهُوَ لاَ يَلِينُ لِنُصْحِهِ ، وَلاَ يَخْضَعُ لِسُلْطانِهِ :

« فطبعك سلطانٌ لعقلك غالب » . فهو لا يفتأ يلغي كلَّ ما يشير به العقلُ على أصحابه :

إذا ما أشار العقلُ بالرشد جرّهم
إلى الغيّ طبعٌ ، أخذه أخذ ساحب

ذلك بأنّ الشرّ غريزةٌ متأصلةٌ في كلّ نفسٍ منذ جدّنا الأعلى :

وَلسيّدِ الأقوامِ عند حجابهِ
طبعٌ يقاتله الحجى ويحاربُ

وَالشرُّ في الجدّ القديم غريزةٌ
في كلّ نفسٍ منه عِرقٌ ضاربُ

أو كما يقول :

وَالطبعُ يخفرُ ذمّةً من ناسكٍ
وَالعقلُ يكرهُ جاهدًا إخفارَها

وما دام الفوزُ مكتوبًا للقويّ على الضعيف في هذه الحياةِ ، فإنّ الغلبة مكفولةٌ دائمًا للطبعِ على العقلِ . وربّما اتخذه الطبعُ خادمًا يذلّل له ما يستعصي عليه ارتيادُه من أفانين الشرور ، وسخّر كلّ ما يملكُ العقلُ من عتادٍ

وقوةٍ ، ليمهد له ما صعب من طرائق الغىّ والضلال ، وحينئذٍ يصبح العقل الراجح نكبة راجحة ، بالغة الأثر محققة الضرر ، ويصبح أقلُّ الأحياء حظاً منهُ أقلهم قدرة على الأذية والضرر : « إن الله — وله علوُّ المكان — جعل الشرّ غريزة في الحيوان . فأبعدهم من الشرور أقلهم حظاً في المعقول » .

١٥ — الطبع والعادة

فإذا عنّ لنا أن نسأل شيخ المعرّة عن رأيه في العادات ، وأين هى من الطبائع ، قال :

الطبعُ شىءٌ قديمٌ لا يُحسُّ بِهِ   وعادةُ المرءِ تُدعى طبعهُ الثانى

وقال :

هى العاداتُ يُرى الشيخُ منها
على شيمٍ يعوّدها الصبىّ

فإن سألناهُ : « وهل تتبدّلُ العاداتُ ، أيها الشيخُ الجليلُ ؟ أو هى ثابتة كالطبائع الإنسانيّة » ؟ قال :

« أَمَّا فِي الْمَعْقُولِ فَلَا ، وَأَمَّا فِي الْقُدْرَةِ فَبَلَى : الْعَادَاتُ — بِإِذْنِ اللهِ — مُتَغَيِّرَاتٌ » .

و « الْمَعَرِّيُّ » الَّذِي يَدِينُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، فَيَقُولُ :

« وَالْعَقْلُ زَيْنٌ ، وَلَكِنْ فَوْقَهُ قَدَرُ »

هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

قَدْ بَدَّلَ الْعَالَمُ عَادَاتِهِمْ بَلْ قَدَرٌ — مِنْ فَوْقِهِمْ بَدَّلَا

١٦ — الْجُودُ وَالْبُخْلُ

وَلِلْمَعَرِّيِّ فِي تَفْصِيلِ الطَّبَائِعِ الْإِنْسَانِيَّةِ فُنُونٌ كَثِيرَةٌ ، نَجْتَزِئُ مِنْهَا بِقَوْلِهِ فِي تَحْلِيلِ طَبِيعَتَيِ الْبُخْلِ وَالْكَرَمِ : يَسْتَغْنِي الْمَرْءُ بَعْدَ الْعَيْلَةِ (الْفَقْرِ) ، فَتَكُونُ لَهُ حَالَانِ : إِنْ كَانَ بَخِيلًا اشْتَدَّ بُخْلُهُ ، وَقَالَ : « أَتَّقِي صَوْلَةَ الْإِعْدَامِ » . وَإِنْ كَانَ كَرِيمًا زَادَ كَرَمُهُ ، وَقَالَ : « جُدْتُ وَأَنَا فَقِيرٌ ، فَكَيْفَ وَأَنَا صَاحِبُ مَالٍ » .

عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَقْسِمُ الطَّبَائِعَ إِلَى قِسْمَيْنِ : طَبَائِعَ أَصِيلَةٍ وَأُخْرَ مُسْتَحْدَثَةٍ ، فَيَقُولُ :

طَبْعٌ جُبِلْتَ عَلَيْهِ لَيْسَ بِزَائِلٍ
— طُولَ الْحَيَاةِ — وَآخَرٌ مُتَعَلَّمٌ

١٧ — الطَّبْعُ الْفَنِّيُّ

وَهُنَاكَ الطَّبْعُ الْفَنِّيُّ ، أَوِ : الْغَرِيزَةُ الْفَنِّيَّةُ ، وَهُمَا شَيْءٌ آخَرُ غَيْرُ الطَّبْعِ النَّفْسِيِّ الَّذِي عَرَضْنَا لَهُ فِي هٰذِهِ الْوَجَازَةِ ، وَهُوَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ شَيْخُنَا بِقَوْلِهِ :

وَالطَّبْعُ[1] يَكْسِرُ بَيْتًا ، أَوْ يُقَوِّمُهُ
— بِأَهْوَنِ السَّعْيِ — تَحْرِيكًا وَتَسْكِينَا

وَقَدْ أَشَارَ « الْمَعَرِّيُّ » إِلَى الْغَرِيزَةِ الْفَنِّيَّةِ إِشَارَةً بَارِعَةً فِي « رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ » ، فَقَالَ مُعَقِّبًا عَلَى قِصَّةِ « بَسَّامَةَ ابْنِ الْغَدِيرِ » خَالِ « زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى[2] » .

---

(١) يعنى الطبع الفنى

(٢) بعث « على بن منصور الحلبى » المعروف بابن القارح ، برسالته إلى أبى العلاء ، فأجابه عنها برسالة الغفران ، وقد أفضى ابن القارح إلى شيخ المعرة — فيما أفضى إليه من شكايات — بقصة ابنة أخته ، وراح يبثه حزنه وألمه من عقوقها وجحودها ، لأنها سرقت من ماله — فيما يقول — ثلاثة وثمانين دينارا ، فلما توعدها بابلاغ السلطان ، ردّت إليه بعضها ، ثم نمى إليه أنها نقمت منه =

وَرُبَّمَا كَانَ فِي نِسَاءِ «حَلَبَ» — حَرَسَهَا اللهُ — شَوَاعِرُ، فَلَا يَأْمَنُ أَنْ تَكُونَ هٰذِهِ مِنْهُنَّ، فَطَالَمَا كُنَّ أَجْوَدَ غَرَائِزَ مِنْ رِجَالِهِنَّ.

وَحَدَّثَ رَجُلٌ ضَرِيرٌ مِنْ أَهْلِ «آمِدَ» يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، وَيَأْنَسُ بِأَشْيَاءَ مِنَ الْعِلْمِ: أَنَّهُ كَانَ — وَهُوَ شَابٌّ — لَهُ امْرَأَةٌ مُقَيِّنَةٌ (١): تُزَيِّنُ النِّسَاءَ فِي الْأَعْرَاسِ، وَكَانَ

= تهديده، ولم تغتفر له وعيده، فأقسمت مغضبة محنقة: إنها لو علمت أن الأمر يجرى هكذا لما تورعت عن الفتك به.

فأجابه شيخ المعرة يحذره من التعرض لسخطها، ويشير — فى لباقة علائية بارعة — إلى ما عرف عن الشيخ «ابن القارح» من سلاطة اللسان، ورحابة باعه فى الهجاء.

وراح يهون عليه الأمر، ويحذره من التعرض لأغضابها ملوحا له بما قد يتركه بيانها اللاذع من أثر فى تشويه سمعته، بصغر — بالقياس عليه — كل ما امتدت يدها إليه من دنانيره، قال:

ويجوز أن يكون قد وشج إلى هذه المرأة شىء من أدب الخؤولة، فليتق معرة بيانها أكثر من اتقائه خلسة بنانها، فهو يعلم أن الشعر ورثه زهير بن أبى سلمى من خاله «بشامة بن الغدير» ولم يكن فى مزينة (قبيلة زهير) شعر يذكر وحضره زهير عند الوفاة، فأراد أن يعطيه شيئا من ماله، فقال «بشامة»:
« أما يكفيك أنى ورثتك غرائب القصيد؟ »

(١) ماشطة.

يُنَجِّمُ[١] عَلَى الطَّرِيقِ ، وَكَانَتْ لَهُ قرْعَةٌ[٢] فِيهَا أَشْعَارٌ كَنَحْوِ مَا يَكُونُ فِي الْقُرَعِ ، وَكَانَ يَعْتَمِدُ حِفْظَ تِلْكَ الْأَشْعَارِ وَيَدْرُسُهَا فِي بَيْتِهِ ، وَلَا غَرِيزَةَ لَهُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَوْزَانِ ، فَيَكْسِرُ الْبَيْتَ .

فَتَقُولُ لَهُ امْرَأَتُهُ الْمَاشِطَةُ : « وَيْلِي ، مَا هٰذَا جَيِّدٌ ! » فَيُلَاجُّهَا ، وَيَزْعُمُ أَنَّهَا مُخْطِئَةٌ . فَإِذَا أَصْبَحَ مَضَى فَسَأَلَ مَنْ يَعْرِفُ ذٰلِكَ ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ الصَّوَابَ مَعَهُ ، وَعَرَّفَهُ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ .

فَإِذَا لَقِيَنَهُ[٣] ، عَادَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ ، فَذَكَرَهُ — وَقَدْ أُصْلِحَ — فَتَقُولُ الْمَاشِطَةُ : « هٰذَا السَّاعَةَ جَيِّدٌ » .

ثُمَّ شَفَعَ « أَبُو الْعَلَاءِ » هٰذَا الدَّلِيلَ ، بِقِصَّةٍ أُخْرَى فَقَالَ :

---

(١) المنجم : الذى يرعى النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ، ليعلم منها أحوال العالم ، وقد أسلفنا رأى المعرى فى المنجمين فى موضعه من رسالة الغفران ، ويحسبنا فى هذا المقام أن نحيل القارىء إلى لاميته فى اللزوميات التى يقول فيها :

لو كان لى أمر يطاوع لم يشن ظهر الطريق يد الحياة منجم

(٢) القرعة : السهم والنصيب ، والقاء القرعة حيلة يتعين بها سهم الانسان ونصيبه .

(٣) فهمه سريعا .

وَكانَ لِي كَرِيٌّ[1] ، مِنْ أَهْلِ الْبادِيَةِ ، يُعْرَفُ بِعُلْوانَ وَلَهُ امْرَأَةٌ تَزْعُمُ أَنَّها مِنْ « طَيِّئٍ » ، وَكانَ لا يَعْرِفُ مَوْزُونَ الْأَبْياتِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَكانَتِ الْمَرْأَةُ تُحِسُّ بِذٰلِكَ .

وَكانَتْ تَتَأَسَّفُ عَلَى طِفْلٍ ماتَ لَها ، يُقالُ لَهُ : « رَجَبٌ » وَكانَتْ تُنْشِدُ هٰذا الْبَيْتَ :

إِذا كُنْتَ — مِنْ جَرَّا حَبِيبِكَ — مُوجَعاً

فَلا بُدَّ — يَوْماً — مِنْ فِراقِ حَبِيبِ

فَقالَتْ يَوْماً : إِذا كُنْتَ — مِنْ جَرِّا رُجَيْبٍ — مُوجَعا

فَعَلِمَتْ أَنَّ الْوَزْنَ مُخْتَلٌّ فَقالَتْ :

إِذا كُنْتَ — مِنْ جَرَّا « رُجَيْبِنَ » مُوجَعاً

فَحَرَّكَتِ التَّنْوِينَ ، وَأَنْكَرَتْ تَحْرِيكَهُ بِالطَّبْعِ ، فَقالَتْ :

إِذا كُنْتَ — مِنْ جَرَّا رُجَيْبِكَ — مُوجَعاً

فَأَضافَتْهُ إِلَى الْكافِ ، فَاسْتَقامَ الْوَزْنُ وَاللَّفْظُ .

* * *

(١) الكرى : المكارى ، والمكترى .

وَلِلْمَعَرِّى فِى رَسَائِلِهِ ، وَفِى فُصُولِهِ إِشَارَاتٌ طَرِيفَةٌ تَنَاوَلَ فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الْغَرَائِزِ [1] مَا يُدْهِشُ الْبَاحِثِينَ . وَمِنْ لَفَتَاتِهِ الصَّادِقَةِ فِى هٰذَا الْبَابِ قَوْلُهُ يَصِفُ مَا وُهِبَهُ الدَّلِيلُ مِنْ غَرِيزَةٍ صَادِقَةٍ ، وَفِرَاسَةٍ حَاذِقَةٍ :

كَمْ أَمَرَةٍ [2] عَرَفَهَا الدَّلِيلُ ، وَعِنْدَ الرُّكْبَانِ أَنَّهَا حَجَرٌ ، لَمْ يَنْصِبْهَا بَشَرٌ ، وَكَفَى بِاللهِ هَادِيًا .

١٨ — الطَّبْعُ الْمُكْتَسَبُ

وَيَرَى شَاعِرُنَا أَنَّ الطَّبْعَ الْإِنْسَانِىَّ الْمُكْتَسَبَ ، لَيْسَ — عَلَى أَىِّ حَالٍ — فِى قُوَّةِ الطَّبْعِ الْأَصِيلِ الْفَيَّاضِ بِالشَّرِّ ، وَلَا فِى مَتَانَتِهِ وَثَبَاتِهِ .

---

(١) وقد أشار أبو العلاء إلى الغريزة الفنية فى رسالته إلى النكتى البصرى حين عرض لبعض عيوب الشعر ، فقال : « وإنما تضعف بعض الغرائز فى غير المؤسس فتجىء بالتأسيس ، أو فيما بنى عليه ، فتجىء بما هو خال منه » . إلى أن قال :

« وقد شاهدنا بعض من يقول الشعر بالعروض ، ربما ركب وزن قصيدة المرقش ، وعنده أن غرائز الناس اليوم لا تنفر من مثل ذلك الخ » .

(٢) الأمرة : العلم ينصب من حجارة .

وَالشَّرُّ فِي طَبْعِ الْأَنَامِ ، فَإِنْ يَبِنْ
شَيْئًا سِواهُ ، فَلَيْسَ خِيمَ نِجارِ

وَالْخِيمُ — كَما يَعْلَمُ الْقارِئُ — الطَّبْعُ ، والنِّجارُ الْأَصْلُ ، فَهُوَ يُقَرِّرُ : أَنَّ ما يَبْدُو مِنْ أَخْلاقِنا الْمُسْتَحْدِثَةِ الَّتِي تُخالِفُ طَبائِعَنا ، لَيْسَ طَبْعًا أَصِيلًا فِي نُفُوسِنا .

١٩ — الدَّواءُ الشّافِي

فَإِذا سَأَلْنا شَيْخَ الْمَعَرَّةِ : فَهَلْ مِنْ دَواءٍ يَشْفِي ساكِنِي هٰذِهِ الْأَرْضِ مِنْ طَبائِعِهِمُ الْفاسِدَةِ وَأَهْوائِهِمُ الْجامِحَةِ . قالَ :

إِذا كانَ الْهَوى فِي النَّفْسِ طَبْعًا
فَلَيْسَ بِغَيْرِ مِيتَتِها سُلُوُّ

رَحِمَ اللهُ أُسْتاذَهُ وَأُسْتاذَنا الْمُتَنَبِّيَ الْقائِلَ :

كَفَى بِكَ داءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شافِيا
وَحَسْبُ الْمَنايا أَنْ يَكُنَّ أَمانِيا

٢٠ — الكَنْزُ العَلائِي

إِنَّ بَعْضَ ما أَبْدَعَهُ شَيْخُنا الْجَلِيلُ وَشاعِرُنا الْفَيْلَسُوفُ

فِى تصوِيرِ الْقُدْرَةِ الإلٰهِيَّةِ الإنْسانِيَّةِ مِنْ أَلْوَاحٍ بيانيَّةٍ مُشْرِقَةٍ بأَرْوَعِ آياتِ الفَنِّ العالِى وَالإبْداعِ الأَصِيلِ ، وإنَّ فِى أَكْثَرِ ما أَوْرَدْناهُ ، لحافِزاً للتَّأَمُّلِ والإِفاضةِ والشَّرْحِ ، حَتَّى لتَضِيقُ بِهِ الأَسْفارُ الضَّخْمَةُ والْمُحاضَراتُ الْمُسْتَفِيضَة

عَلَى أَنَّنا اجْتَزَأْنا مِنْ ذَلِكَ الْمَعِينِ الْفَيَّاضِ بِما يَجْتَزِئُ بِهُ الظَّامِئُ مِنَ النَّهْرِ الْجارِى : بِجُرْعَةٍ تَشْفِى الصَّدَى ، وَتُرْوِى الظَّمأَ .

وَنَحْنُ أَمامَ الْكَنْزِ الْمَلآنِ أَشْبَهُ بِرُوَّادِ الْكُنُوزِ الَّذِينَ تُمَثِّلُهُمُ الأَساطِيرُ يَقِفُونَ أَمامَ نَفائِسِها حائِرِينَ مَأْخُوذِينَ ، لا يَعْرِفُونَ ماذا يَأْخُذُونَ مِنْها وَماذا يَتْرُكُونَ .

٢١ — فِى الْعالَمِ الآخَرِ

وَلَنا — إِلَى هٰذا الْكَنْزِ الأَدَبِيِّ الْحافِلِ عَوْدَةٌ قَرِيبَةٌ فى رِسالَةِ الْغُفْرانِ (١) لِنَرَى كَيْفَ تَمَثَّلَ شَيْخُنا الْجَلِيلُ طَبائِعَ الأَناسِيِّ فِى الدَّارِ الآخِرَةِ ، بَعْدَ أَنْ بَعَثَتْهُمُ الْقُدْرَةُ

(١) وقد عرضنا لذلك فى الطبعة الرابعة التى أودعناها النّص الكامل لرسالة الغفران ، وهى قريبة الظهور إن شاء الله .

الإلهية ، وكيف صورها خياله الوثاب في قصته الخالدة : « رسالة الغفران » ونعرف : هل تبدل الناس في العالم الآخر ، وهل غيرت الجنة والنار من طبائع ساكنيها ، بعد أن تحول كل شيء من الضد إلى الضد ؟ .

أم تغيرت الأشكال والصور والهيئات . ولم تتغير الطبائع والسجايا والعادات ؟

الفصل الثاني

الطبـــع الحيـــواني

١ — الضَّعيفُ والقوىُّ

فإذا انتقلنا — معَ شيخنا «أبي العلاء» — مِنَ الطَّبْعِ الإنسانيِّ، إلى الطَّبْعِ الحيوانيِّ، راعنا منهُ أنَّهُ لا يكادُ يَحْمَدُ للحيوانِ صفةً واحِدَةً إلاَّ أنْحَى بالذَّمِّ على غيرِها. فهوَ في جمهورِ منظومِهِ ومنثورِهِ، لا يفتأُ ينعتُهُ بالجورِ والإفسادِ، ويصفُهُ بالبغيِ والاستبدادِ. ويُعلِنُ سُخطَهُ واستنكارَهُ لِما يشهدُهُ ويراهُ، مِنْ فنونِ بغيِهِ وأذاهُ. وعندَهُ أنَّ الحيوانَ كالإنسانِ — في كُلِّ صُقعٍ ومِصرٍ، وفي أيِّ عهدٍ وعصرٍ، ظالمٌ مُعتدٍ أثيمٌ، يفتكُ قويُّهُ بضعيفِهِ، ويستبدُّ قادرُهُ بعاجزِهِ، لا فرقَ في ذلكَ بينَ سِباعِ الطَّيرِ وبغاثِها، وأُسدِ الفلاةِ ومهاتِها، وهو يرى ما يراهُ أُستاذُهُ المتنبِّي: أنَّ البغيَ أصيلٌ في كلِّ نفسٍ

قادِرةٍ ، بَرّةً كانتْ أوْ فاجِرةً :

والظُلمُ مِنْ شِيَمِ النفُوسِ ، فإنْ تجِدْ
ذا عِفَّـــةٍ ، فلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ[1]

٢ — غريزة الظلم

والَحْمامَةُ — عَلَى ضَعْفِها — ظالِمَةٌ باغِيَةٌ :

وَالشرُّ — في حَيوانِ الأَرضِ مُفتَرِقٌ
وَالإِنْسُ كالْوَحْشِ : منْ ضارٍ وَمُبْتَقِلِ[2]

وَهِيَ — فِيما يرَى شاعِرُنا — لا تتَورَّعُ لَحظَةً واحِدَةً عنِ الْفَتْكِ وَالأَذى والْعُدْوانِ ، مَتَى هُيِّئَ لها — مِنْ أسْبابِ الشرِّ وطرائقِهِ — ما يُحقِّقُ آرابَها ، وَيُتيحُ لها إرْضاءَ نزَواتِها الْباغِيَةِ ، وَيكفُلُ إرْواءَ نزَغاتِها الطّاغِيةِ . فَهِيَ تَظْلِمُ

(١) من قصيدة مشهورة للمتنبي .

(٢) الضارى : المفترس من أكلة اللحم ، والمبتقل : آكل البقل .

— ما وسعتها طاقتها الضعيفة — كما يظلم الأسد جهد طبيعته الباطشة الغلابة ، فهو يقول :

كادت تساوى نفوس الناس كلهم
في الشر ما بين منبوز ونباز (١)

ظلم الحمامة — في الدنيا — وإن حسبت
في الصالحات — كظلم الصقر والبازى

والخشف — وهو ولد الظبية أول ما يولد — يمل ، على عجزه وضعفه ، نفساً شريرة باغية ، لا تكاد تختلف عن نفس الأسد طبيعة وعنصراً ، ومعدناً وجوهراً ، وكلاهما جدير أن يتقى شره ، ويحذر ضره .

وإليك النص :

« خف من خشف بغم (٢) ، كما تخاف من هزبر

---

(١) نبزه : لمزه ، ونبزه بكذا : لقبه به ، وهو شائع في الألقاب المستهجنة

(٢) بغمت الظبية : صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها ، وبغم فلان صاحبه : لم يفصح له عن معنى ما يحدثه به .

(أَسَدٍ) ضَغَمَ (عَضَّ)، فَكُلُّ الأَنْفُسِ مَواطِنُ الشُّرُورِ»

وَعِنْدَهُ أَنَّ الْكُلَّ فِي الغَفْلَةِ سَواءٌ:

وأُمِّ شِبْلَيْنِ فِي غِيلٍ، ومأْسَدَةٍ
كَأُمِّ خِشْفَيْنِ فِي شَثٍّ وطَبَّاقِ (١)

***

عَلَى أَنَّهُ يُوصِيكَ أَنْ تَصْنَعَ الْمَعْرُوفَ دائِماً، فِي كُلِّ مَنْ تُمَكِّنُكَ الْفُرْصَةُ مِنْ إِسْداءِ الْجَمِيلِ إِلَيْهِ، سَوَاءٌ فِي ذٰلِكَ الإِنْسانُ والْحَيَوانُ، فَهُوَ يَقُولُ:

تَوَخَّ الأَجْرَ فِي وَحْشٍ وَإِنْسٍ
فَفِي كُلِّ النُّفُوسِ مَرَامُ أَجْرِ

وَكَأَنَّما يُشِيرُ بِهٰذا الْبَيْتِ — فِي لَباقَةٍ — إِلَى مَأْثُورِ الْحَدِيثِ:

ما مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلاَّ كانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ.

(١) يعنى أن اللباة فى عرينها كالظبية التى ترعى من النبات الشث وهو نبت طيب الرائحة يدبغ به، والطباق وهو شجر فى جبال مكة يتداوى به شديد الاسخان.

٣ — طبيعة الخوف

وَلا يَفُوتُ شاعِرَنا أَنْ يُنَبِّهَ — فِيما نَبَّهَ إِلَيْهِ مِنْ طَبائِعِ الْحَيَوانِ وَغَرائِزِهِ — إِلى ما جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْخَوْفِ مِنَ الْقَوِيِّ . فَهُوَ إِذا قَرَّرَ لَنا فِي بَعْضِ فُصُولِهِ ما تَأَصَّلَ فِي طَبْعِ الْإِنْسانِ مِنَ الظُّلْمِ فَقالَ : « طُبِعَ النَّائِمُ عَلَى الْحُلْمِ ، وَالْإِنْسانُ عَلَى الظُّلْمِ » . لَمْ يَفُتْهُ فِي فَصْلٍ آخَرَ أَنْ يُصَوِّرَ لَنا ما طُبِعَ عَلَيْهِ الْحَيَوانُ مِنْ غَرِيزَةِ الْخَوْفِ مِنَ الْفاتِكِ الْباطِشِ ، فَيَقُولُ :

أَلْمَخْلُوقُ كَما خُلِقَ !
طُبِعَ الهادِلُ ، (الْحَمامُ) ،
عَلَى الْخَوْفِ مِنَ الْأَجادِلِ ، (الصُّقُورِ) .
فَالْحَمائِمُ وَإِنْ سَكَنَّ الْأَقْفاصَ ،
وَعَلِمْنَ أَنْ لا مَفاصَ ، (عَرَفْنَ أَنْ لا خَلاصَ)
يُحْسِنَّ النَّقْرَ ،
وَيَخْشَيْنَ مَخالِبَ الصَّقْرِ ،

أَوْ يَقُولُ :

أَرَى حَيَوانَ الْأَرْضِ يَرْهَبُ حَتْفَهُ
وَيُفْزِعُهُ رَعْـــدٌ ، وَيُطْمِعُهُ بَرْقُ

٤ — براعة النحلة

ولَهُ إِلَى ذٰلِك ، فُنُونٌ مِنَ الْمُقابلاتِ ، بَيْنَ الْإِنسانِ والْحَيوانِ ، لا يَتَّسِعُ هٰذَا الْمَقامُ لِتَفْصِيلِها ، فَلْنَقْتَصِرْ عَلَى بَعْضِ ما أَبْدَعَهُ فِي مُقابَلَةِ بَيْنَ الْإِنْسانِ والنَّحْلَةِ ، قال :

« والْجارِسَةُ (النَّحْلَةُ) تَبْنِي — مِنَ الشَّمْعِ — أَحْسَنَ مَسْكَنٍ ، وتُودِعُهُ طَيِّبَ الْأَرْيِ (الْعَسَلِ) .

وَزَمازِمُها تَسْبِيحٌ لِمُلْهِمِ الْحِكْمَةِ مَنْ أَراد .

فَما فَضِيلَةُ الصَّنَعِ (الْحاذِقِ الْكَفِّ بِالصَّنْعَةِ) .

إِذا اتَّخَذَ قَمِيصاً (دِرْعاً) لِلْحَرْبِ .

كَبارِدِ الْحَبَبِ (طَرائِقِ الْماءِ) .

أَوْ بُرْدِ الْحُبابِ ؟ (جِلْدِ الْحَيَّةِ) » .

وما أَرْوَعَ قَوْلَهُ فِي تَشْبِيهِ الْبارِعِ الْمَوْهُوبِ بِالنَّحْلَةِ

فهوَ بما أُوتيهِ مِنْ مزايا نادرةٍ ، وقُدْرةٍ باهِرةٍ ، يرُدُّ الوَحشِيَّ مِنَ الكلامِ أنيساً ، كَما يرُدُّ النَّحْلُ ما يجْنيهِ مِنْ نورِ الأزهارِ — وَهِيَ مُرَّةُ المذاقِ — عَسَلاً سائِغاً للشَّارِبينَ ، فهُوَ يقُولُ :

رَدَّتْ لَطَافَتُهُ وَحِدَّةُ ذِهْنِهِ
وحْشَ اللُّغاتِ أَوانِساً بِخطابِهِ
والنَّحْلُ يَجْنِي المُرَّ مِنْ نَوْرِ الرُّبَى
فيَعُودُ شهْداً فى طريقِ رُضابِهِ

٥ — رزق الحيوان

وَهُوَ — عَلَى هذا — دائِمُ العِنايةِ مَوْصُولُ التَّفْكِيرِ فى الحيوانِ والإِنسانِ جَميعاً ، وَلَهُ فِي ذٰلِكَ فُنُونٌ مِنْ روائِعِ الصُّوَرِ ، تَضيقُ بتَفْصِيلِها مُطَوَّلاتُ الكُتُبِ والأَسْفارِ ، بَلْهَ مُوجَزاتِ الفُصُولِ والأَسْطارِ .

ويُحْسِبُنا فِي هٰذِهِ الوَجازَةِ أَنْ نُشيرَ إِلَى بَعْضِ أَلْوَاحِهِ الفَنِّيَّةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ ناحيَةً مِنْ نواحِي تَفْكِيرِهِ العَميقِ ، فِي تَمَثُّلِ العِنايةِ الإِلٰهِيَّةِ بِكُلِّ حَيٍّ مِنَ الأَحْياءِ

وكيف كفلت الرزق لجميع المخلوقات .

فهو يعرض — في هذا اللوح الفاني — صورة رائعة التفصيل ، تمثل بعض المصادفات التي تعدها الأقدار ، لتهيئة الرزق لمن قسم لهم على غير انتظار .

فهذا رجل يعتزم السفر ، فيعد للرحيل عدته ، ويدفعه الشره إلى التأنق في اختيار طيب الزاد ، والافتنان في تهيئة لذيذ الطعام . فإذا تم له مراده ، وأعد للرحلة زاده ، وضع الخبز في سفرة من الخوص . إلى جانب جدي سمين طري اللحم ، لذيذ الطعم ، يكاد يتفطر إهابه لدسامته . ولم ينس المسافر نصيبه من الحلاوة ، فأعد لنفسه ما يكفي الجماعة — من لذيذ الفالوذج — ثم صبر إلى الصباح ، فلما أشرق النهار بدأ رحلته ، وما زال يواصل السفر طول يومه ، حتى إذا آذن النهار بالزوال ، نزل على ماء نمير ، جلبه السيل الغزير ، إلى عين أو غدير ، فأصاب من شهي الزاد حاجته ، وأكل من لذيذ الحلاوة كفايته .

وأَتاحَ الْمُسافِرُ بِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ فُرْصَةً سَعِيدَةً ، ومَأْدُبَةً فَرِيدَةً ، لِأُمَّةٍ مِنَ النَّمْلِ جائِعاتٍ ، جِئْنَ إِلَيْهِ مُسْرِعاتٍ ، وأَقْبَلْنَ عَلَى مُشارَكَتِهِ فِي زادِهِ مُتَسَلِّلاتٍ ، وقَدْ بَدَتْ جُسُومُهُنَّ الْمَحْزُوزاتُ ، كَأَنَّ ظُهُورَهُنَّ — مِنَ الْحَزِّ — مَقْطُوعاتٌ .

* * *

ولا يَفُوتُ شاعِرَنا أَنْ يُنَبِّهَ إِلَى ما يَخْتَصُّ بِهِ الضَّعِيفُ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى الْأَذَى ، وإِلْحاقِ الضُّرِّ بِالْقَوِيِّ ، فَيُقَرِّرَ لَنا أَنَّ هٰذِهِ النَّمْلَ الضَّعِيفاتِ ، عَنِ الْأَذِيَّةِ غَيْرُ عاجِزاتٍ ، وأَنَّهُنَّ — عَلَى تَجَرُّدِهِنَّ مِنَ السُّيُوفِ والرِّماحِ ، وأَدَواتِ الْحَرْبِ والْكِفاحِ — قادِراتٌ عَلَى إِيذاءِ الْكُماةِ الْمُدَجَّجِينَ بِالسِّلاحِ .

ثُمَّ يُمَثِّلُ لَنا شاعِرُنا كَيْفَ أَتاحَ الْمُسافِرُ لِضُيُوفِهِ النَّازِلاتِ بِساحَتِهِ ، أَلْواناً شَهِيَّةً مِنْ فُتاتِ مائِدَتِهِ .

ويُصَوِّرُ لَنا كَيْفَ طَوَّحَ صاحِبُنا ما زادَ عَنْ كِفايَتِهِ مِنَ الْعِظامِ ، بَيْنَ كُثْبانِ الرِّمالِ والْآكامِ . فَهَنِيئاً بِذٰلِكَ

رِزْقاً لِطائفةٍ مِنَ الْحيوانِ ، وَجدَتْ فِيما يَحتَوِيهِ العَظْمُ مِنْ مُخٍّ طرِيٍّ ، زاداً جِدَّ شَهِيٍّ . فأَقبَلَ علَيْهِ بَعضُ الْجِياعِ ، مِنَ الغِرْبانِ الْبُقْعِ أَوِ الضِّباعِ .

وهُنا يُبْدِعُ لنا — فَيلَسوفُ الْمَعرَّةِ وشاعِرُها — صُورَةً بارِعَةً لِتلْكَ الْغِرْبانِ والضِّباعِ ، وَكَيْفَ يَتبدَّيْنَ فِي بَدِيعِ ثِيابِهِنَّ ، فَيُخيَّلُ لِمَنْ يَراهُنَّ ، أَنَّهُنَّ قَدْ تَلفَّعْنَ وتَسرْبَلْنَ بِبَدِيعٍ مِنَ الثِّيابِ والأَبْرادِ ، مُخَطَّطَةً بِالْبَياضِ والسَّوادِ .

وإِلَيْكَ النَّصَّ الْعَلائِيَّ :

أَمرُ الأَرزاقِ أَزْوالٌ (عَجائِبُ) :

عَزَمَ ظاعِنٌ عَلَى الشُّخُوصِ ، (الْمَسِيرِ) .

فاتَّخَذَ سُمَّهَةً[1] مِنْ خُوصٍ ،

فِيها أَبيَضُ حُرٌّ (خبز) .

---

(١) [السُّمَّهة : السفرة تتخذ من الخوص] .

وعُمْرُوسٌ،(١) (جَدْيٌ) ، أَرْضَعَتْهُ الْخَرُوسُ،(٢).
ورِعْدِيدٌ،(٣) ، يَكْتَفِي بِهِ الْعَدِيدُ.
فَسارَ الإِنْسانُ لَمَّا أَبْصَرَ،
فَلَمَّا فِي يَوْمِهِ وأَقْصَرَ،(٤).
نَزَلَ عَلَى عَيْنٍ سَجْراء [يَضْرِبُ ماؤُها إلَى الْحُمْرَةِ ،
لِقُرْبِ عَهْدِهِ بالسَّيْلِ] ،
فَأَصابَ مِنَ الطَّعامِ ،
واللهُ آثَرَ (خَصَّ) الإِنْسَ بِطَيِّبِ الأَكِيلِ [الْمَأْكول].

---

(١) [العمروس : الجدى ، أو الخروف ، وأكثر ما يستعمل فى الجدى ، ويقال : إن عبد الملك بن مروان قال لعدىّ بن حاتم :
« ما تعدون أفضل الطعام عندكم ؟ »
قال : العنوق (الإناث من المعزى) »
قال « أما نحن فلا نعدل بالعماريس »] .

(٢) [الخروس : التى تلد بكرها ، فيكون لبنها قليلا ، فتعمل لها الخُرْسَة ، وهى طعام تُطْعمه النفساء ، ليدر لبنها] .

(٣) [الرعديد ، هنا : الفالوذ ، وفى غير هذا الموضع : الجبان] .

(٤) [أقصر : صار فى قِصَر النهار ، وهو : آخره] .

فاجْتَمَعَ إِلَيْهِ سُودٌ جُزْلٌ[1] ، (نَمْلٌ) ،
يُؤْذِينَ ذَوِى الْأَسْلِحَةِ وهُنَّ عُزْلٌ ،
فَأَصَبْنَ ما قُسِمَ لَهُنَّ والْحُتامَةُ النُّزْلُ ، [يَعْنِى أَنَّ ما سَقَطَ عَنِ الْمائِدَةِ كانَ زادَهُنَّ ، والنُّزْل هو : الطَّعامُ الَّذِى يُصْلَحُ لِلنَّازِلِ ، إِذا نَزَلَ بِكَ] .

* * *

ورَمَى بالأَنْقاءِ ، (الْكُثْبانِ مِنَ الرَّمْلِ) ،
أَعْظُماً ذواتِ أَنْقاءٍ[2] ، (ذَواتِ أَمْخاخٍ) ،
فابْتَدَرَهُنَّ بُقْعٌ (جَمْعُ أَبْقَعَ ، وهُوَ : الْغُرابُ ، أَو : الضَّبُعُ ، لَوْنُهُ الْبَقَعُ) كَأَنَّما عَلَيْهِنَّ لُفَّعٌ مِنَ الْبُرُدِ ، أَوِ السِّباجِ[3] .

---

(١) [يقال للنملة : جزلاء ، لأجل الخَزّ الذى فى ظهرها ، ويقال : بعير أجزل إذا خرجت — من فقار ظهره — فقارة] .
(٢) [مصدر أنقى العظم إذا صار فيه نِقى ، وهو : المخ ، وإذا فتحت الهمزة ، فهو جمع نِقْى] .
(٣) [اللفع (جمع لفاع) وهو ما يتلفع به ، والبُرُد : جمع بُرْدة ، والسِّباج : جمع سبيجة ، ثوب فيه سواد وبياض] .

وَمِن لفتاتِهِ الطَّرِيفَةِ فِي هٰذا الْبابِ قَوْلُهُ :

يَرَى الضَّبُّ الرَّاكِبَ .

فَيَقُولُ لِحِسْلِهِ (وَلَدِهِ) :

« اتَّقِ الحارِثَ (صيَّادَ الضَّبِّ) » .

فَيَمُرُّ الرَّاكِبُ عَجِلاً .

وَمَعَهُ جِرابُ عَجْوَةٍ .

فَيُلْقِيهِ .

ويُعْجِلُهُ السَّيْرُ عَنْ أَخْذِهِ .

فَيَكُونُ فِي ذٰلِكَ الْجِرَابِ مَعِيشَةٌ لِحِسْلِ (وَلَدِ الضَّبِّ) وأَبِيهِ .

٧ — فِي طَلَبِ الرِّزْقِ

وَمِنْ بَدائِعِ الصُّوَرِ الَّتِي رَسَمَتْها رِيشَةُ هٰـذا الْمُبْدِعِ قَوْلُهُ أَيْضاً يُمَثِّلُ ما يُعانِيهِ الْإِنْسانُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ :

« وَيَغْدُو الْحاطِبُ نَشِيطاً ، وَفِي يَدِهِ الْمِخْلَبُ (الْمِنْجَلُ) ، وعَلَى عاتِقِهِ الْمَسَدُ ،

فَيَكُونُ أَكِيلَ أُسامَةِ (مَأْكُولَ الْأَسَدِ) مَعَ الشُّرُوقِ».

وَقَوْلُهُ يُمَثِّلُ ما تُعانِيهِ الْقَطاةُ مِنْ ضُرُوبِ الْأَخْطارِ فِي سَبِيلِ الْتِماسِ الرِّزْقِ:

تَنْزِلُ الْقَطاةُ إِلَى شَرَكِ الْوَلِيدِ،
وَهِيَ فَرْحَى بِما لاحَ لَها مِنَ الرِّزْقِ،
فَيَؤُولُ أَمْرُها مَعَهُ إِلَى أَحَدِ ثَلاثَةِ أَشْياءَ:
سَخْطٍ[1] مُزْعِفٍ[2] (ذَبْحٍ سَرِيعٍ مُجْهِزٍ)
أَوْ سِجْنٍ حَرِجٍ،
أَوْ عَذابٍ مُبَرِّحٍ.

وَقَوْلُهُ:

وابْكِ عَلَى طائِرٍ رَماهُ فَتًى
لاهٍ، فَأَوْهَى بِفِهْرِهِ[3] الْكَتِفا
أَوْ صادَفَتْهُ حِبالَةٌ نُصِبَتْ
فَظَلَّ فِيها، كَأَنَّما كُتِفا

(١) من سخطه: ذبحه سريعا. (٢) من أزعفه: قتله مكانه.
(٣) الفهر: الحجر ملء الكف.

بَكَّرَ يبغي المعاش مُجْتَهِداً

فقُصَّ — عِنْدَ الشُّرُوقِ — أَوْ نُتِفا

كَأَنَّهُ — فِي الْحَياةِ — ما فَرَعَ الْغُصْ

نَ[1] ، فَغَنَّى عَلَيْـــهِ ، أَوْ هَتَفَا

وقَوْلُهُ يَصِفُ النَّحْلَةَ :

وتَقْدُمُ الجارِسَةُ (النَّحْلَةُ) عَلَى مارِّ الطَّرِيقِ بِاللَّسب (اللَّدْغِ) ، وحَتْفُها فِيهِ .

وقَوْلُهُ وَفِيهِ إِشارَةٌ إلى طَبِيعَةِ السَّرِقَةِ :

وَيَنامُ الْوَلِيدُ عِنْدَ وِجارِ الضَّبَّةِ الْمَكُونِ[2] (وهِيَ : الَّتِي مَعَها بَيْضُها)

وَمَعَهُ تَمَرَاتٌ حَشِفاتٌ (مِنْ أَرْدَإِ التَّمْرِ)

فَتَخْرُجُ لِتَسْرِقَهُنَّ مِنْهُ ،

فَيَصِيدُها بِالسَّعْيِ الْهَيِّنِ ،

---

(١) فرع الغصن : علاه . (٢) المكن : بيض الضبة ، وقد مكنت أي باضت فهي مكون أي بائض مفعول بمعنى فاعل ، ومثله أمكنت فهي ممكن .

٧ — فُنُون من الغرائز

ولا يَقِفُ خيالُ هذا الْمُبْدِعِ الْمَوْهوبِ عِنْدَ حَدٍّ ، فَهُوَ يَتَخَطَّى الْإِنسانَ وَالْحيوانَ إِلَى النَّباتِ ، وَيَحْفِزُهُ تَأَمُّلُهُ الْعميقُ أَحْيانًا إلى تَمَثُّلِهِ كائِنًا حيًّا ، فَيَسْأَلُ نَفْسَهُ مُتَعَجِّبًا : تُرَى هَلْ يَشْعُرُ النَّباتُ كَما نَشْعُرُ ، وَيَخافُ الرَّدَى كَما نَخافُهُ ؟

« وإِنْ كانَتْ صُفْرَةُ الْبَهارِ مِنْ خوفِ الْمَوْتِ ، فَهِيَ تَشْعُرُ إِذَا دنا مِنْهَا الْجانُونَ .

وإن كانَتْ صُفْرَتُها غَرِيزَةً ، فلا بالَةَ (فلا مُبالاةَ) لَها : أَفَتَكَ الْجانِي بِأُخْتِها أَمْ بِالشِّيحَةِ[1] .

ومِنْ رَوائِعِ تأملاته ، قَوْلُهُ فِي وَصْفِ غَرِيزَةِ النَّمْلِ :

« وَيَنْقاضُ الْمازِنُ (يَنْشَقُّ بَيْضُ النَّمْلِ) ،

---

(١) الشيح نبات أنواعه كثيرة وهو عند الإطلاق نوعان أصفر الزهر يشبه السذاب فى ورقة وهو الأرمنى وأحمر غليظ الورق وهو الزكى وكله طيب الرائحة ومنه عربى ينبت فى بلاد العرب ترعاه المواشى .

ومن بدائع تهكمه فى هذا الباب قوله :

ورب ورد فى وجنات ، صاحبُه يسمع ويبصر ، يسقيه — صباحَ مساءَ — طل الدمع ، وهو لا يشعر به . ووردة أخرى فى شجرة : ينتثر ورقها ذبولا وعطشا والماء فى أصل قضيبها جار .

عَنْ أَوْلادِ النَّمْلِ ،
فَيَضْحَكْنَ إِلَى النَّباتِ الْأَخْضَرِ ،
وهُنَّ لَمْ يَخْتَلِفْنَ قَطُّ فِى جَمْعِ الْقُوتِ » .
وعِنْدَهُ أَنَّ الْعِلْمَ يُدْرَكُ بِثَلاثَةِ أَشْيَاءَ :
« بِالْقِياسِ الثَّابِتِ ،
والْعِيانِ الْمُدْرَكِ ،
والْخَبَرِ الْمُتَواتِرِ » .
وَثَمَّ يَقُولُ :
أَمَّا الحِسُّ ، فَزَجْرُ طَيْرٍ هِىَ خَلِيقَةٌ بِالْكَذِبِ ،
وَإِنْ صَدَقَتْ فَبِاتِّفاقٍ :
وَالْعِلْمُ للهِ كَمَلاً » .
فَلا غَرْوَ إِذا رأَيناهُ — كَما أَسْلَفْنا الْقَوْلَ فِى رسالةِ الْغُفْرانِ — يَحْتَقِرُ الْفأْلَ ، ولا يُؤْمِنُ بِالطِّيَرَةِ .
وهُوَ يُدَلِّلُ عَلَى رَأْيِهِ فى فُصولِهِ وغاياتِهِ بِفُنُونٍ مِنَ الأَدِلَّةِ ، فيَقولُ مَثَلاً :

« وإن كان النَّعيبُ من شواهدِ الرَّحيلِ ،
فالغرابُ يعلمُ الغيبَ ! ومعاذَ اللهِ !
شغلِ ابنُ دأية (الغراب) بسؤرِ الليثِ (بما يُبقيه الأسدُ).
ورذِيَّةُ السفرِ (النَّاقةُ المهزولةُ من السَّيْرِ) عن توكُّفِ
الأخبارِ (انتظارِها) »

* * *

ومن طرائفهِ في هذا البابِ قولُهُ : « فكمْ ناظرٍ إلى
الفراقِ ، ثمَّ كفيهُ » إلى أن يقولَ :
« وقدْ يُكذِبُ الموعدةَ بنأي الغدِ ، أمرٌ يحدُثُ
بعدَ شدِّ الأكوارِ » .
وقولُهُ ، وهوَ من بدائعِ التَّهكُّمِ السَّاخرِ :
واجهتَ قُبَّرةً ، فخِفتَ تطيُّراً
ما كلُّ ميْتٍ ـ لا أبالكَ ـ يُقبَرُ[(١)]
وهوَ ينفي عنها العقلَ كما ينفي العلمَ ، ويرى أنَّنا قدِ

---

(١) يعني أنك تطيرت بالقبرة ، لأنها ذكرتك بالقبر ، فهل علمت أن القبر أمنية قد لا تتحقق لكل ميت ، وربما عزت عليك فلم تظفر بها .

اختصصنا بهما – معشرَ الأناسيّ – دونَ سائرِ الحيوان ، ويستدلُّ على رأيه بالكثير من الدلائلِ والمشاهدات ، فهو يقرّر مثلاً أنّ الهرمة المسنّة من النّياق ترى جلد الحُوار[1] المحشوّ تبناً أو ثماماً أو غيرهما فتعطِف عليه وتحسبه ولدها الفصيل فتدرّ ، ولو عقلت أو علمت لميّزت بين الفصيلِ والبوّ – فهو يقول :

إنْ كان للإبلِ غريزةُ علمٍ ، فما بالُ الشّارفِ تدرُّ على البوّ[2] ؟
وإنّما هو ثُمامٌ !

وكيف لا يهرُب العَوْدُ من الكلأ الوخيم
وعلامَ تنساقُ الهجمة[3] – أمامَ الفتى الغرّ – إلى مُدى الجازرِ ، وسيفِ العاقرِ .

---

(١) ولد الناقة من حين يرضع الى أن يفطم ويفصل عن أمه .

(٢) قال البحترى :

إن الزمان زمان سو ... وجميع هذا الخلق بو
فإذا سألتهم ندى ... فجوابهم عن ذاك : وو
لو يملكون الضوء بخ ... لاً ، لم يكن للخلق ضو
ذهب الكرام بأسرهم ... وبقى لنا ليت ولو

(٣) الهجمة : القطعة من الابل

أَوْ يَقُولُ مِنْ حَدِيثٍ مُعْجِبٍ يُدَلِّلُ فِيهِ عَلَى جَهْلِ النَّعَامِ :
« أَلَمْ يَضَعِ النَّظْمَ (أى : البيض) بِمَكَانٍ : هُوَ ـ عِنْدَهُ ـ
مَنِيعٌ ، فَسَقَاهُ الزَّاجِلَ (سَقَاهُ ماءَهُ) .

وحَضَنَهُ اللَّيْلَ الْأَدْهَمَ .

ثُمَّ حَرَبَهُ (سَلَبَهُ) إِيَّاهُ ، وَلَدُ الْأَمَةِ الْفَاجِرَةِ ، وَلَوْ أَمَدَّهُ
اللهُ بِعِلْمٍ ، لَعَلِمَ كُلَّ مَا ظَهَرَ وَثَاخَ (ساخَ فى الْأَرْضِ)

أَوْ يَقُولُ :

وَمَا يُفْرِقُ الْفِزْرُ (الْقَطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ ، أَوِ : الْجَدْى) بَيْنَ
الْغَافِ وَالْقَرَظِ[1] وَبَيْنَ غَيْرِهِ من أَصْنَافِ الشَّجَرِ .

٨ — تصاريف القدر

عَلَى أَنَّ الْقَدَرَ الْمُسَخَّرَ الدَّائِبَ ، الْمُنْتَصِرَ الْغَالِبَ ،
الْوَاهِبَ السَّالِبَ ، نَافِذُ الْقَضَاءِ ، فِى الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ عَلَى
السَّوَاءِ ـ كَمَا أَسْلَفْنَا ـ « وَأَبَتِ الْأَقْضِيَةُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ـ

(١) الغاف والقرظ : نبتان يدبغ بهما ، وقد أشار إلى القرظ فى فصل آخر من فصوله فتمثل الفزر (القطيع من الغنم) كأنما ألهمه الله أن يغتاظ من هذا النبات لأن جلد الغنم سيدبغ به بعد الموت ، فيقول فيلسوف المعرة : « يمر الفِزْرُ بالقرظ ، فيرعاه رعى حنق (شديد الغيظ) كأن له علما بما يلقى الأديم ، فألطف بالله ملهما الخ » .

كما يقولُ شاعِرُنا — أَنْ تترُكَ رِيشَ جناحٍ وافِياً . لكل خيرٍ بالشرِّ انسِاخٌ » :

وَليس لنا مِنْ حيلةٍ فِي دفعِ القضاءِ ، فكمْ نهابُ وَنجزَعُ ، وَنترَدَّدُ فِي الإقدامِ فنرجعُ ، ثُمَّ يحفِزُنا القدَرُ إلى اقتحامِ المهالكِ فنستسلِمُ لِحُكْمِهِ فِي ضراعةِ المُذعِنِين ، وَنلقَى مصارعَنا فِي قماءةِ الأذِلاَّءِ صاغِرِينَ :

نهابُ أُموراً ثُمَّ نركبُ هولَها

على عَنَتٍ : مِنْ صاغِرِينَ قِماءِ

فَلا غرْوَ إذا صرخَ شاعِرُنا صرخاتٍ مِن الأعماقِ ، تُمثِّلُ ما انتهى إليْهِ فزَعُهُ حِينَ يقولُ :

« نجوتُ مِنَ الحبالةِ ، فكيفَ رجعْتُ ؟

وَعلى عِلمٍ وَضعْتُ القدَمَ فِي النَّارِ ! »

وفرخُ الغُرابِ وهوَ — فِيما يَرَى — آيةٌ فِي الحِرْصِ وحِدَّةِ البَصرِ ، كيفَ يصرَعُهُ القضاءُ فلا يُنجيهِ مِنْهُ الذَّكاءُ والحَذَرُ ؟

شَدَّ ما أَبدعَ — شاعِرُنا — فِي قولِهِ :

« والبُجُّ (فرخُ الغُراب) — عَلَى صَفاء عَينِه ،
وَوَصِيَّةِ أبِيهِ لَهُ باتِّقاء الْأَنِيسِ — يَرَى الْعَظْمَ فى
خِباء الْقَوْم ، فيَحْمِلُه الشَّرَهُ على هُجُومِهِ . فيُغِيرُ طَمَعًا فى
الْمُكاكَةِ (الْمُخِّ الّذِى يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْعَظْمِ) . فإذا
ظَفِرَ بِهِ ، ابْتَغَى ما طَلَبَ فَأَخْفَقَ ،
وأَلْفاهُ صِفْرًا مِنَ الْقَصِيدِ (الْمُخِّ الْغَلِيظِ)
والرِّيرِ (الْمُخِّ الذَّائِبِ) .
وَقَدْ رآهُ الصَّبِيُّ ، فعَرَضَ لَهُ بِعَظْمٍ فِيهِ صَلِيبٌ[1]
(وَدَكٌ) ، فيَحْمِلُه جَشَعُ النَّفْسِ عَلَى كَرِّ الْغارَةِ .
فيَرْمِيهِ ، فيُطِيرُ جَناحَهُ .
وَهُوَ بالأُولَى ما اتَّعَظَ ، وَقَدْ سَلِمَ فيها وَدَجُهُ[2] مِنَ
الْمُدْيَةِ ، وجَناحُهُ مِنْ رُزْء الْمُصِيبَةِ !
لَقَدْ رَماهُ الْقَدَرُ بِائْتِلاخٍ (بِاخْتِلاطِ الأَمْرِ عَلَيْهِ) .

---

(١) الصليب : الودك المستخرج من صليب العظام .

(٢) الودج : عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة ، والأخدع عرق فى العنق فى موضع الحجامة .

وقولُه :

تَبْحَثُ الضّائِنَةُ فتثيرُ ذاتَ الجُزْأَةِ (نصاب الشَّفْرة وَالسّـكّينِ) فيَعُودُ بَضِيعُها (لَحْمُها) في البُرْمَةِ (القدْر) .

وَجِلْدُها مَعَ المَنِيئَةِ (وَهِيَ : الجِلْدُ ما دامَ فِي الدباغِ)

وَصُوفُها عَمِيتَةً (1) لِلْوكْعاء الرّاعِيَةِ (2) » .

وَقَوْلُهُ يَصِفُ مَصْرَعَ الظّـبْيِ :

« وَإِنهُ لَيَرِدُ الْغَدِيرَ

فَيَرَى فِيهِ خَيالَ نَفْسِهِ ، وَقَدْ فَقَدَ قَرِينَتَهُ مُنْذُ لِيالٍ ،

فَيَظُـنُّها خَيالَهُ

فَيَظَلُّ يَدْعُوها بِالنَّزِيبِ (3)

وَيُوفِي عَلَى النُّطْفَةِ الزَّرْقاءِ ، (الْماءِ الصّافِي)

فَيَجِدُ رِيحَ الْقانِصِ فَيَنْفِرُ ، وَيَرْكَبُ — مُعْتَسَفَ

---

(1) [العميتة : شيء من الصوف ، يجعل في الحلقة ليغزل] .

(2) [الوكعاء هنا : اللئيمة الحمقاء] .

(3) النزيب : صوت الظبي .

الطَّرِيقِ — فَيَقَعُ فِي الْحِبَالَةِ ، وَلَوْ رَجَعَ عَلَى قَرْوَاهُ (لَوْ رَجَعَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جاءَ فِيهِ) كانَ أَحْزَمَ .

وَقَوْلُهُ :

وَيُدْلِجُ السِّيدُ (الذِّئْبُ) — وَقَدْ أَسَنَّ وَانْحَصَّ[1] فِي اللَّيْلَةِ ذاتِ الْأَزِيزِ (الْبَرْدِ) وَالْجَرْبِياءِ (الشَّمْأَلِ) — إِلَى مُرَاحِ الْغَنَمِ .

فَإِذا رَأَى الْجَذِيرَةَ (الْحَظِيرَةَ) ، بَشَّرَ نَفْسَهُ الشَّكِمَةَ (الشَّدِيدَةَ الْجَزَعِ)[2] ، وَوَعَدَ مِعاهُ الْوِزَامَ ، (ذاتَ الْأَطْباقِ مِنَ الْكَرِشِ) .

فَتَكُونُ حُظْوَتُهُ فِي تِلْكَ الْجُهْمَةِ (الْقِطْعَةِ مِنَ اللَّيْلِ[3]) حُظْوَةَ غُلَامٍ (سَهْمُهُ الصَّغِيرَ) فِي اللَّبَّةِ ، (الْمَنْحَرِ) أَوْ

---

(١) انحص : إذا سقط شعره ، وهو أخبث ما يكون] .

(٢) [المعنى : أنه قد اشتد جوعه فجزع منه] .

(٣) [ويقال : هى أول مآخير الليل] .

مِشْقَصَ شَيْخٍ (وَالْمِشْقَصُ : نَصْلٌ مُسْتَطِيلٌ) فِي الزَّافِرَةِ (الصَّدْرِ).

وَقَوْلُهُ :

« وَيَمُدُّ الظَّبْيَ جِيدَهُ (عُنُقَهُ) إِلَى الْبَرِيرِ (وَهُوَ : أَوَّلُ مَا يَظْهَرُ مِنْ ثَمَرِ الْأَرَاكِ) وَحَتْفُهُ فِيهِ. وَيَجْذِبُ الرِّهْدَنَ (وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعَصَافِيرِ) طَمَعٌ فِي الْحَبَّةِ الْوَاحِدَةِ، فَيَقَعُ فِي ذَاتِ الْحِمَامِ ».

وَقَوْلُهُ يَصِفُ غَفْلَةَ الْأَرِيبِ الْأَلْمَعِيِّ وَمُفَاجَئَاتِ الْقَدَرِ :

« وَرُبَّ مَطْلُوبٍ بِتِرَةٍ، (بِثَارٍ) هَجَمَ عَلَى إِرَةٍ، (نَارٍ) وَهُوَ الْقَائِفُ (الْعَارِفُ بِالْآثَارِ) اللَّبِيبُ. يَتَوَهَّمُهَا أُطَيِّمَةَ[1] فَرِيقِهِ (تَنُّورَ أَصْحَابِهِ).

فَوَجَدَ لَدَيْهَا ثَأَرَةً (طُلَّابَ ثَأْرٍ) زُرْقَ الْعُيُونِ.

---

(١) الأطيمة : موقد النار والفريق : الطائفة من الناس — أكثر من الفرقة — وربما أطلق على الجماعة قلت أو كثرت.

وَقَوْلُهُ يَصِفُ مَصْرَعَ الْعَجُوزِ :

وَتُهْوِي الشَّهْلَةُ (الْعَجُوزُ الَّتِي فِيهَا بَقِيَّةٌ[١]) الْمُجَرَّسَةُ (الْمُجَرَّبَةُ) بِيَدِهَا إِلَى ابْنٍ أَوْ بَرَ لِتَأْكُلَهُ ، أَوْ تُطْعِمَهُ فَطِيمَهَا ، فَيَجُرَّ الْمَنِيَّةَ .

وَمِنْ أَبْرَعِ مَا يُخْتَمُ بِهِ هٰذَا الْفَصْلِ قَوْلُهُ يَصِفُ غَوَائِلَ الْأَيَّامِ ، وَفَتَكَاتِ الْأَقْدَارِ :

بَلِ الْفَتَيَانِ[٢] اعْتَادَ قَلْبِي أَذَاهُمَا
يَشِيمَانِ[٣] أَسْيَافَ الرَّدَى ، وَيَهُزَّانِ
عَزِيزَانِ بِاللهِ : الَّذِي لَيْسَ مِثْلُهُ ،
يُذِلَّانِ — فِي مِقْدَارِهِ[٤] — وَيُعِزَّانِ
وَكَمْ فَتَكَا — وَالْحِسُّ قَدْ بَانَ عَنْهُمَا —
بِأَهْلِ وُهُودٍ ، أَوْ جِبَالٍ ، وَحُزَّانِ[٥]

---

(١) [وأنشد لبعض اللصوص :
لم يخلق الله شيئا كنت أبغضه غير العجوز ، وغير الكلب ، والقمر
هذا نبوح ، وهذا يستضاء به ، وهذه شهلة قوامة السحر]
(٢) يعني : الليل والنهار . (٣) يستلان . (٤) قدره .
(٥) حُزَّان بالضم والكسر جمع حزيز ، وهو : المكان الغليظ المنقاد .

وَما تَرَكا تُرْكَ القِبابِ ، وَغادَرا
— بِرُمْحَيْنِ ، أَوْ جُرْزَيْنِ[١] — أُسْرَةَ جُرْزانِ[٢]

سَلا « غابَ تَرْجٍ »[٣] و « الأُنَيْعِمِ » ، كَمْ ثَوَى
— بِذاكَ وَهٰذا — مِنْ أُسُودٍ وَخِزّانِ[٤]

---

(١) الجرز : عمود من حديد أو فضة .

(٢) جرزان : ناحية بأرمينية الكبرى .

(٣) ترج : مأسدة ، يقال فى المثل : « هو أجرأ من الماشى بترج » .

(٤) الخزان : الأرانب (جمع خزز ، كصرد ، وهو الذكر من الأرانب) .

الفصل الثالث

قصتان

١ – أسامة والفأر

هٰذِهِ أَمْثِلَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الصُّوَرِ الَّتِى رَسَمَتْهَا رِيشَةُ الْفَيْلَسُوفِ الشَّاعِرِ فِى قِصَصِهِ الْفَنِّيَّةِ – اجْتَزَأْنَا بِهَا فِى الْفُصُولِ السَّابِقَةِ – تَقْرَؤُهَا فَتَمْلَأُ الرَّوْعَةُ نَفْسَكَ ، وَسَتَمُرُّ بِكَ فِى هٰذِهِ الرِّسَالَةِ جَمْهَرَةٌ أُخْرَى مِنْ هٰذِهِ الصُّوَرِ ، فَلَا تَدْرِى بِأَىِّ دَقَائِقِهَا تَعْجَبُ ؟

أَبِهٰذَا الْإِيجَازِ الْبَرْقِىِّ الْخَاطِفِ الَّذِى يَكَادُ يُودِعُ فِيهِ كَاتِبُهُ صُورَةً كَامِلَةً فِى فِقْرَةٍ مِنْ فِقَرَاتِهِ ؟ أَمْ بِهٰذِهِ الْحَيَاةِ الشَّامِلَةِ الَّتِى تَفِيضُ بِهَا شُخُوصُهُ ؟ أَمْ بِهٰذَا الْأَثَرِ الْبَاقِى الَّذِى تَتْرُكُهُ قِرَاءَتُهَا فِى نَفْسِكَ ! أَمْ بِهٰذَا الْعُمْقِ الْفَلْسَفِىِّ الَّذِى يَجْلُو لَكَ مِنْ خَفَايَا النَّفْسِ الْحَيَوَانِيَّةِ نَوَازِعَ وَخَلَجَاتٍ ، وَآمَالًا وَرَغَبَاتٍ ، وَمَظَالِمَ جَائِرَاتٍ ، وَلَفَتَاتٍ بَارِعَاتٍ ،

لا تَكادُ تَعرِضُ لِغَيرِ هذا السّاخِرِ البارِعِ العَميقِ، ولا يَكادُ يَظفَرُ باقتِناصِها إلاّ مَنْ وُهِبَ مِثلَ بَيانِهِ الفَنِّيِّ الأخّاذِ، وَبصرِهِ الفَلسَفِيِّ النَّفّاذِ.

وكَأنَّما صِيغَ شاعِرُنا وصّافاً بِفِطرَتِهِ، قَصّاصاً بِطَبيعَتِهِ، فَهُوَ يَصُوغُ — مِنَ المَعاني العادِيَّةِ المُتَعارَفَةِ المأْلُوفَةِ — قَصَصاً يَنْسِجُ وَقائِعَها عَلى مِنْوالِهِ، مِنْ وَحْيِ خَيالِهِ، في أُسلُوبِهِ المِثالِيِّ الجَديدِ، وبَيانِهِ المَلائِيِّ الفَريدِ.

فَهُوَ لا يَفتَأُ يَبْتَكِرُ المِثالَ، ويَفتَنُّ في ضَرْبِ الأَمثالِ، والإبْداعِ في الخَيالِ، فَلا يَكادُ يَشْرَعُ في البِدايَةِ، حَتّى يَبلُغَ الغايَةَ، في بَيانٍ نَضيرٍ، وخَطْوٍ قَصيرٍ، يُودِعُ أَبْرَعَ اللَّفَتاتِ، في مُوجَزِ الكَلِماتِ.

فَإِذا قالَ ابنُ الرُّومِيِّ، يُفَنِّدُ رَجُلاً يَتَسامَى إلى هِجاءِ مَنْ لا يُدانيهِمْ كِفايَةً وَفَضْلاً:

ما حَقُّ مِثْلِكَ أَنْ تَفُو ه، بِمَدْحِهِمْ، بِلْهَ المَعابَهْ!

ثُمَّ جاءَ المُتَنَبِّي، فَقالَ:

إِنَّما التَّهْنِئَاتُ لِلأَكْفاء ... وَلِمَنْ يَدْنِي مِنَ الْبُعَدَاء

رَأَيْنا شيْخَنا في رسالَةِ الْهَناء ، يُفَصِّلُ هٰذا الْمَعْنى على طَرِيقَتِهِ الْقَصَصِيَّةِ ، وَيُقَرِّرُ أَنَّ التَّهْنِئَةَ لا تَقَعُ إلاَّ بَيْنَ الْكُفاةِ وَالْأَنْدادِ .

فَلَا يَجُوزُ لِصُعْلُوكٍ مَهْمَا بَلَغَ بِهِ الْحُبُّ وَالْوَلاء ، أَنْ يَتَسامى إلى مَقامِ الْوُزَراء وَالْأُمَراء ، وَلَنْ يَشْفَعَ لَهُ إِخْلاصُهُ وَصِدْقُ إِعْجابِهِ فِي رَفْعِ تَهْنِئَتِهِ إلى مَنْ لَيْسَ لَهُ بِكُفْء .

* * *

ثُمَّ ضَرَبَ — لِذٰلِكَ — مَثَلَ الْأَسَدِ ، ظَفِرَ بِما سَعَى لَهُ مِنْ صَيْدٍ ، ثُمَّ أَكَلَ مِنْهُ ما شاء ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَجْلِسِهِ وُفُودُ الْمُهَنِّئِينَ ، مُتَرَدِّدِينَ خائِفِينَ ، وَقَدْ انْعَقَدَتْ مِنَ الْهَيْبَةِ أَلْسِنَتُهُمْ ، فَجَلَسُوا حَوْلَهُ صامِتِينَ ، فَإِذا اجْتَرَأَ مِنْهُمْ عَلَى الْكَلامِ شُجاعٌ — مِنْ كِبارِ الْحاشِيَةِ — فَلَفْظَةٌ مُوجَزَةٌ ، أَوْ كَلِمَةٌ مُخْتَصَرَةٌ ، حَتّى لا يَتَعَرَّضَ لِخَطَلٍ ، أَوْ يَتَوَرَّطَ فِي زَلَلٍ .

ثُمَّ يَلُوذُ بِالصَّمْتِ يُؤْثِرُهُ بَيَانًا ، وَيَتَّخِذُهُ مُعَبِّرًا عَنْ إِجْلالِهِ وَتَرْجُمانًا .

وَثَمَّةَ يَعْرِضُ لَنا حاشِيَةَ الأَسَدِ ، وَهِيَ تَحُفُّ بِمَوْلاها فِي خُنُوعٍ وَضَراعَةٍ وَصَمْتٍ ، وَإِنَّها لَكَذٰلِكَ إِذا بِفَأْرٍ كانَ يَعِيشُ فِي جِوارِ مَلِيكِهِ آمِنًا قَرِيرَ الْعَيْنِ لا يَجْرُؤُ عَلَى إِيذائِهِ قِطٌّ فاتِكٌ غَدَّارٌ ، وَلا يَقْدِرُ عَلَى الْفَتْكِ بِهِ مِنْ بَناتِ عِرْسٍ شِرِّيرٌ مِنَ الأَشْرارِ . فَقَدْ وَجَدَ الْفَأْرُ فِي حِمَى الأَسَدِ نَجاةً مِنْ جَوْرِ الْجائِرِينَ ، وَسَلامَةً مِنِ اعْتِداءِ الْمُعْتَدِينَ .

* * *

وَقَدْ أَبَى عَلَى هٰذا الْفَأْرِ غُرُورُهُ وَحَماقَتُهُ إِلَّا أَنْ يَعْدُوَ خَطَرَهُ ، وَيَتَجاوَزَ مِقْدارَهُ ، فَيَرْفَعَ تَهْنِئَتَهُ إِلَى مَلِيكِهِ الْعَظِيمِ يُودِعُها مَوْفُورَ سُرُورِهِ وَابْتِهاجِهِ بِما ظَفِرَ بِهِ مِنْ رُتْبَةٍ سَنِيَّةٍ .

* * *

وَما كادَ الأَسَدُ يَرَى جُرْأَةَ هٰذا الْمُتَطاوِلِ بِالثَّناءِ عَلَيْهِ

حتى نكر منه غروره وجرأته ، وعاب عليه وقاحته ، فيشتعل غضباً ، ويبدو على محياه المتجهم ، من فنون الغيظ والحنق ما يملأ قلوب الحاضرين رعباً وفزعاً ، حتى ليخيل إليهم أنه من فرط الغضب على أتون مضطرم ، ثم نظر الأسد ، وهو يكاد يلتهب ناراً ، إلى ذئب من أفراد حاشيته ، أو لعله نظر إلى نمر ، فما يدرى حقيقة ذلك مخبر ، فأدرك صاحبنا ما يتوخاه مولاه ، وأذعن لتنفيذ أمره ، فأشار من فوره إلى قط منه قريب أن يلحق بذلك الأخرق الطائش ما يناسبه من أذية .

وما كاد الفأر المسكين يرى ما جلبه عليه اندفاعه وتسرعه حتى هاله ما يراه ، فصرخ مستغيثاً بالأسد مولاه ، وراح يولول وقد أخذته مخالب القط ، وهو لفرط غباوته ، وموفور شقاوته — لا يدرى أى ذنب أسلفه فاستحق به هذا العقاب ، ويصيح الفأر الغبى وقد أخذ منه العجب كل مأخذ ، فيصرخ مدهوشاً : « كيف أقتل وأنا أعيش فى

جِوَارِ مَوْلَانَا الْأَسَدِ الْعَظِيمِ وَرِعَايَتِهِ، وَأَنْعَمُ بِعَطْفِ مَلِيكِنَا الرَّحِيمِ وَعِنَايَتِهِ.

فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْبَرِيَ لِهَٰذَا الطَّائِشِ الْمَأْفُونِ (ضَعِيفِ الرَّأْيِ) جُنْدِيٌّ مِنْ أَفْرَادِ الْحَاشِيَةِ يُفَسِّرُ — بَعْدَ نَفَاذِ الْقَضَاءِ فِيهِ مَا غَمَضَ عَنْهُ مِنَ التَّفْسِيرِ، وَيُوَضِّحُ مَا جَلَبَهُ عَلَيْهِ غُرُورُهُ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ. فَقَدْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَعْدُوَ قَدْرَهُ وَيَتَجَاوَزَ خَطَرَهُ، فَلَقِيَ عَلَى حَمَاقَتِهِ هَلَاكًا وَمَصْرَعًا، وَلَمْ يَجِدْ فِي كُرْبَتِهِ مُغِيثًا وَلَا مَفْزَعًا.

٢ — النَّسْرُ وَالعُصْفُور

ثُمَّ انْتَقَلَ شَاعِرُنَا عَلَى عَادَتِهِ فِي التَّنَقُّلِ مِنْ قِصَّةِ الْأَسَدِ مَلِكِ الْحَيَوَانِ إِلَى قِصَّةِ النَّسْرِ مَلِكِ الطَّيْرِ، يُفَصِّلُ مَثَلًا آخَرَ، يَضْرِبُهُ لِمَنْ يَتَجَاوَزُ طَوْرَهُ، وَيَتَعَدَّى قَدْرَهُ، فَصَوَّرَ لَنَا لَوْحًا بَارِعًا آخَرَ مِنْ أَلْوَاحِهِ الْفَنِّيَّةِ يُمَثِّلُ نَسْرًا عَظِيمًا اقْتَنَصَ — فِي بَعْضِ جَوْلَاتِهِ — ظَبْيًا، وَاجْتَرَأَ عَلَى

الْكَلام في حَضْرَتِهِ — مُهنِّئًا مِنْ بَيْنِ الطُّيُورِ الصَّامِتَةِ — عُصْفُورٌ طائِشٌ — كما اجْتَرَأَ مِنْ قَبْلِهِ ذٰلِكَ الْفَأْرُ الْمَأْفُون عَلَى تَهْنِئَةِ الْأَسَدِ — فالْتَفَتَ مَلِكُ الطَّيْرِ إلى بازٍ مِنَ الْبُزاةِ يُشِيرُ إلَيْهِ أَنْ يُعاقِبَهُ عَلَى سُوءِ أَدَبِهِ وَقِحَتِهِ ، وَاجْتِرائِهِ عَلَى الْكَلامِ فِي حَضْرَتِهِ ، فأَكَلَهُ الْبازِي مِنْ فَوْرِهِ ، وَأَلْحَقَ الْيُتْمَ بِأَطْفالِهِ ، وَلَقِيَ حَتْفَهُ عَلَى مَقالِه .

الفصل الرابع

في عالم الأسود

١ – بين المعري وابن الرومي

لو شاء باحث منصف متعمق أن يؤدي لشاعرنا الفيلسوف ما هو جدير به من الرعاية والحقوق، لأعجزه أن يتابع روائع صوره، ويتقصى بدائع أخيلته، فما أكثر ما يعرض شاعرنا الموهوب للمعنى الواحد في مناسبات متعددة، متقاربة فتراتها أو متباعدة، فيجلو في كل مناسبة منها جمهرة من الفنون الفكرية البهيجة، يحار الباحث في متابعتها، ويضيق ذرعاً باستيعابها، فيتمثل بقول القائل:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً
لقلبك يوماً، أتعبتك المناظر

رأيتَ الّذى لا كلُّهُ أنتَ قادرٌ
عليْهِ ، وَلا عَنْ بعْضِهِ أنْتَ صابِرُ

وَرُبّما اجتزَأ بالْقليلِ ، عَنِ الْكثيرِ ، مُتمَثِّلاً بقوْلِ ذِى الرُّمَّة :

فَإنْ لَمْ يَكُنْ إلاّ تزَوُّدُ ساعةٍ
قليــلاً ، فإنِّى نافعٌ لى قَليلُها

أوْ قوْلِ « يزيدَ بْنِ الطَّثَرِيَّة » :

أليْسَ قلِيلاً نظْرَةٌ إنْ نَظَرْتُها
إليْكِ ، وكَلاَّ ليْسَ منْكِ قَليلُ

فَقَدْ كادَ يَنْفرِدُ صاحِبُنا مِنْ بَيْنِ شُعَراء الْعرَبيَّةِ . وقدْ كدْنا نَقُولُ : مِنْ بَيْنِ شُعَراء الدُّنيا ، بِالإحاطَةِ الشّامِلَةِ لِما يَتَناوَلُهُ مِنْ أُمَّهاتِ الْمَعانى، وَهُوَ — كما أسْلَفْنا — يَعْرِضُ لِما يَهْدِفُ إليْهِ مِنْ غَرَضٍ فيَجْلُو فِى كُلِّ مَرَّةٍ صُوراً مِنْهُ مُخْتَلِفَةَ الأَخْيلَةِ والأَهْدافِ ، مُتبايِنَةَ الدُّرَرِ وَالأَصْدافِ ، فيُخَيِّلُ إلَيْكَ أنَّهُ قدْ أوْدَعَ فِى كُلِّ لَوْحٍ مِنْ ألْواحِهِ

جُمَاعَ ما يَدُورُ بالخَلَدِ، أو يَخْطُرُ عَلَى البال.

ثُمَّ لا يَلْبَثُ أن يَعُودَ إلى ذلِكَ المَعْنَى مِن جَدِيدٍ، حَتَّى يَرْسُمَ لكَ مِنهُ صُوَراً جَدِيدَةً وألواحاً مُبْدَعَةً فَرِيدَةً، وَهُوَ فِى كُلِّ صُورَةٍ مِنها يَجْلُو آيَتَهُ، وَيبْلُغُ غايَتَهُ.

فإذا بِكَ مَفتونٌ مأخُوذُ اللُّبِّ بِمَا يَبْتَكِرُه خيالُهُ الخِصبُ مِنْ فُنُونِهِ، وما أنشَأَهُ مِنْ سِحْرِ فُتُونِهِ. وَهُوَ فِى تَعْدادِ صُوَرِهِ لِلغَرَضِ الواحِدِ وَتقصِّى مَعانِيهِ فِى كُلِّ صُورَةٍ مِنها، يَكادُ يَرْجَحُ ابْنَ الرُّومِىِّ وَيزِيدُ عَلَيهِ فى تِلْكَ المَزِيَّةِ الَّتِى بهرتنا وبهرت — من قبلنا الناقِدَ البارع: «ابْنَ خلِّكَانَ[1]» كما بهرتْ غيرَهُ مِنَ أساطِينِ البَيانِ، وحيَّرته كما حيَّرت غيرَهُ من نقدة الشعر، وقادةِ الفكر.

وما نَحْسَبُنا بحاجَةٍ إلى ضَرْبِ الأمْثالِ لِتأْيِيدِ ما نَذْهَبُ إليهِ، فقَدْ مرَّ بكَ أمثلةٌ لا تُحْصَى فى دِراستنا رسالةَ الغُفْرانِ وَفِيما تَقَدَّمَ مِنْ فصُولِ هذِهِ الوَجازةِ، وسيمرُّ بِكَ فِيما تقرؤُه

(١) قال ابن خلكان: «يغوص على المعانى النادرة، فيستخرجها من مكامنها، ويبرزها فى أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقى فيه بقية».

— إن شاء الله — من أجزاء حديقة أبي العلاء، ما يغني عن الإفاضة والإسهاب، في هذه الومضات العاجلة.

ويحسبنا في هذا المقام أن نقتصر على إشارات سريعة إلى بعض ما أبدعته ريشته من بدائع الصور حين عرض لشخصين من شخوص القصة التي تخيلها في رسالة الهناء، وهما الفأر والأسد، لنزيد القارئ بما نقوله تثبتا واقتناعا إن كان في حاجة إلى الاستزادة من التثبت والاقتناع.

٢ — ابن المقفع والجرذان

لقد عرض شاعرنا في رسالة الهناء — كما أسلفنا في الفصل السابق — إلى قصة الفأر والأسد، فكم شغله في حياته الطويلة التفكير في الفأر مرة، وفي الأسد ثانية، وفي الفأر والأسد ثالثة، وفي هذين وغيرهما من ضروب الحيوان رابعة، وهكذا.

ولقد نهج في هاتين القصتين أغنى قصتي: الأسد والفأر، والباز والعصفور — اللتين ترجمناهما إلى الأسلوب

العصرى نهج غيره من أعلام الفن القصصى الذى حمل لواءه الكاتب القاص الموهوب عبد الله بن المقفع ، فى كتابه الخالد « كليلة ودمنة » . ولم يقتصر شاعرنا على هذا اللون الرمزى الذى برع فيه ابن المقفع ، وأبى إلا منازعته فيه — كما نازع غيره من فحول البيان — فاستولى على الأمد ، وانفرد بالسبق فى أكثر الميادين التى جاراهم فى حلباتها ، وأبى طبعه الموهوب إلا أن يبذ منافسيه . فتم له ما أراد ورجحت كفة ميزانه دقة وإيجازا ، وحقيقة ومجازا . فهو لم يقف عند الحدود الفنية التى قبسها « ابن المقفع » من فنون الفرس والعرب وأساطيرهما ، بل تعداها إلى فنون أخر من الروائع ، جلا فيها مالا يخطر على بال ، من غرائز الحيوان وخصائصه وأحاسيسه وعجائب إلهامه ودقائق خواطره .

فقد شبه « ابن المقفع » الليل والنهار بالجرذين فى كليلة ودمنة : ذلك السفر الجليل الذى ميزت أبوابه كما يقول

مُبْدِعُهُ — عَلَى لِسانِ كِسْرى أَنُوشِرْوانَ — وأُثْبِتَتْ عَجائِبُهُ عَلى أَفْواهِ الطَّيْرِ والبَهائِمِ والوَحْشِ والسِّباعِ والهَوامِّ وسائِرِ حَشَراتِ الأَرْضِ، مِمَّا يَحْتاجُ إِلَيْهِ المُلُوكُ فى سِياسَةِ رَعِيَّتِها وإِقامَةِ أَوَدِها وإِنْصافِها.

« وتَمَثَّلَ ابْنُ المُقَفَّعِ — فِيما تَمَثَّلَهُ مِنْ بَدائِعِ سِفْرِهِ التَّحْلِيلِيِّ الرَّائِعِ — أَنَّ الإِنْسانَ فِى هٰذِهِ الدُّنْيا « أَشْرَفُ الخَلْقِ وأَفْضَلُهُ فِيها. ثُمَّ هُوَ — على مَنْزِلَتِهِ — لا يَتَقَلَّبُ إِلَّا فِى شَرٍّ، وَلا يُوصَفُ إِلَّا بِهِ ». ثُمَّ قالَ.

« ونَظَرْتُ، فَإِذا هُوَ لا يَمْنَعُهُ مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا لَذَّةٌ حَقِيرَةٌ يَسِيرَةٌ — مِنَ المَشْرَبِ، وَالمَطْعَمِ، والشَّمِّ، والنَّظَرِ، والسَّمْعِ، وَاللَّمْسِ. لَعَلَّهُ يُصِيبُ مِنْهُ طَفِيفًا لا يُوصَفُ، سَرِيعٌ انْقِطاعُهُ وَامْتِحاقُهُ وزَوالُهُ.

فالْتَمَسْتُ لَهُ مَثَلًا، فَإِذا مَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ أَلْجَأَهُ الخَوْفُ إِلَى بِئْرٍ تَدَلَّى فِيها، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ نابِتَيْنِ عَلَى شَفِيرِها (ناحِيَتِها مِنْ أَعْلاها). فَوَقَعَ رِجْلاهُ على شَىْءٍ عَمَدَهُما،

(أَسْنَدَهُمَا وَقْوَاهُمَا)، فَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ بِأَرْبَعِ أَفَاعٍ قَدْ أَطْلَعْنَ رُءُوسَهُنَّ مِنْ أَجْحَارِهِنَّ، وَنَظَرَ إِلَى أَسْفَلِهَا، فَإِذَا هُوَ بِتِنِّينٍ (ثُعْبَانٍ عَظِيمٍ) فَاغِرٍ فَاهُ نَحْوَهُ.

وَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى الْغُصْنَيْنِ، فَإِذَا فِي أُصُولِهِمَا جُرَذَانِ: أَبْيَضُ وَأَسْوَدُ، يَقْرِضَانِهِمَا دَائِبَيْنِ لَا يَفْتُرَانِ.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ، يَهْتَمُّ بِالْحِيلَةِ لِنَفْسِهِ، إِذْ نَظَرَ فَإِذَا قَرِيبٌ مِنْهُ كُوَارَةُ نَحْلٍ[١]، فِيهَا شَيْءٌ مِنْ عَسَلٍ، فَتَطَعَّمَ مِنْهُ، وَاشْتَغَلَ بِحَلَاوَتِهِ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي أَمْرِهِ.

***

وَنَسِيَ الْحَيَّاتِ الْأَرْبَعَ الَّتِي رِجْلَاهُ عَلَيْهَا. وَلَا يَدْرِي مَتَى يَهِجْنَ بِهِ أَوْ إِحْدَاهُنَّ.

وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْجُرَذَيْنِ دَائِبَانِ فِي قَطْعِ الْغُصْنَيْنِ، وَأَنَّهُمَا إِذَا قَطَعَاهُمَا وَقَعَ فِي فَمِ التِّنِّينِ فَهَلَكَ.

---

(١) كوارة النحل: شيء يتخذ للنحل من القضبان — أو الطين — ضيق الرأس، أو: هي عسلها في الشمع، أو: هي الخلايا.

فَلَمْ يَزَلْ لاهياً ساهياً حتَّى هلك» .

وهُنا يُفسِّرُ رموزَهُ فيقولُ :

فَشَبَّهتُ البِئْرَ بِالدُّنيا المَمْلوءةِ آفاتٍ وشُرُوراً وَمخاوِفَ ومتالِفَ .

«وَشَبَّهْتُ الحيَّاتِ الأَرْبَعَ بِالْأَخْلاطِ الأَرْبعةِ الَّتِي تعمَّدتِ الْإِنْسانَ ، وَمتى يهيجُ مِنْها شيء فَهُوَ كالْحُمَةِ مِنَ الْأَفعى والسُّمِّ الْمُميتِ .

وشَبَّهْتُ الْغُصْنَيْنِ بِالْحياةِ .

وشَبَّهْتُ الْجُرْذَيْنِ بالليلِ والنَّهارِ ، وَقرْضَهُما دأْبُهُما في إنفادِ الآجالِ الَّتِي هِي حُصُونُ الْحياة .

وشَبَّهْتُ التِّنِّينَ بالموْتِ الَّذِي لابُدَّ مِنْهُ .

والْعَسلُ هٰذِهِ الحلاوَةُ الْقليلةُ الَّتِي يُصِيبُها الإِنسانُ فَتَشْغَلُهُ عَنْ نفْسِه ، وَتُلْهِيهِ عَنِ التَّحيُّلِ لِخَلاصِهِ ، وَتَصُدُّهُ عَنْ سبيلِ نَجاتِه » .

فانبرى شاعرُنا يُناقِشُ هٰذِهِ الصُّورَةَ الْفَنِّيةَ عَلَى عادَتِهِ

فى مُناقشَةِ الْفحولِ مِنَ الْكُتّابِ والشُّعَراء ومُناقضتِهِم، وَأقبلَ يُنْكِرُ عَليْهِ فِى دُعابَةٍ مستملحَةٍ رائعةٍ — تَشْبيه اللَّيْلِ والنَّهارِ بالْفأرَيْنِ الضَّعيفَيْنِ، مُؤْثِراً تمْثيلَهُما، بالأسَدَيْنِ الْمفترسَيْنِ، فهُوَ يقُولُ:

«وَما بَرَّ مَنْ ساواهُما فى قياسِهِ
بِبِرَّىْ عُقُوقٍ، بَلْ هُما سبُعانِ»

ثُم يعْرِضُ لنا هٰذهِ الصُّورَةَ فى لَوْحٍ ثانٍ، فيقُولُ:

وَجَدْنا ذاهِبَ الْفتَيَيْنِ أفْنَى
مُلوكَ الأرْضِ مِنْ عربٍ وَفُرْسِ
وَما البِرّانِ مِثْلهُما، وَلٰكِنْ
هُما الأسَدانِ يبْتَغِيانِ فَرْسِي

ثُمَّ يعْرِضُها فى لوْحٍ ثالثٍ فيقُولُ:

«أسَدانِ يفْترِسانِ مَنْ   مرّا بهِ، فأبَهْ لِذلِكْ»

وَرُبّما تمثّلَ الموْتَ بازِياً أوْ أسَداً، وَتمثّلنا حماماً يأكُلُها الْبازِى وَفرائِسَ يبْطِشُ بها الأسَدُ، فقالَ:

« وَالمَوْتُ بازٍ والنُّفُوسُ حَمائِمٌ

وَهِزَبْرُ عَرِيسٍ ، وَنحْنُ فَرائِسُ »

وَالمعَرِّىُّ — كما يعرفهُ رُوَّادُ أَدبِهِ — شَدِيدُ الْوَلَعِ بِمُناقضَتِهِ الْكُتَّابَ وَالشُّعَراءَ ، والافْتِنانِ فِى مُداعَبتِهِمْ وَمُعارَضَةِ أَقْوالِهِمْ ، وَفِى رِسالَةِ الْغُفْرانِ أَمْثِلَةٌ لا تُحْصَى عَلَى ذٰلكَ .

وَهُوَ لا يَفتَأُ فِى جُمْهُورِ نَثْرِهِ وَنظمِهِ يُناقِشُهُمْ وَيُنَكِّتُ عَلَيْهِمْ مَرَّةً ، وَيَسْخَرُ مِنْ هَنَواتِهِمْ ثانِيَةً ، وَيُنَدِّدُ بِسقطاتِهِمْ ثالِثَةً ، وَيُشِيدُ بِحَسَناتِهِمْ رابِعَةً .

٣ — بَيْنَ المَعَرِّىِّ والبُحْتُرِىِّ

وَمِنْ بَدائِعِ نوادرِهِ فِى هٰذا الْبابِ تِلْكَ الْمُعاتَبَةُ الظَّرِيفَةُ الَّتِى عَرَضَ فِيها لِمُناقَضَةِ « الْوَلِيدِ ، أَبِى عُبادَةَ الْبُحْتُرِىِّ » فِى قَوْلِهِ ، عاتِباً عَلَى « بَغْدادَ » ، شاكِياً جَوْرَها .

« ما أَنصفَتْ « بَغْدادُ » حِينَ توَحَّشَتْ

لِنَزِيلِها ، وَهِىَ الْمَحَلُّ الآنِسُ »

فينبرى شاعرنا — فى « سقط الزند » ، لمناقضته والرد عليه فيقول :

ذمّ « الوليد » ـ ولم أذمم ـ جوارَكمُ ،
فقال : « ما أنصفت بغداد » ، حوشيتا
فإن لقيت « وليداً » والنوى قذف[1]
يوم القيامة ، لم أعدمه تبكيتا

٤ — ثمر النبع

وقال الوليد البحترى أيضاً :

« وعيرتنى خلال العدم آونة
والنبع عريان ، ما فى عوده ثمر »

فما كاد يتلقف منه ذلك التشبيه ، حتى راح يخطئه فيما ذهب إليه ، ويفند رأيه مداعباً ، ويقول معابثاً :

« وقال الوليد : « النبع ليس بمثمر »
وأخطأ ، سرب الوحش من ثمر النبع »

---

(١) قذف : بعيدة .

وَلَوْ شِئْنا أَنْ نقِفَ عِنْدَ هٰذِهِ الكَلِمَةِ، أَعْنِي كلِمةَ النَّبع، وَنتريثَ شيْئاً، قَبْلَ أَنْ نَنْتَقِلَ إلى سِياقِ هٰذا الفَصْلِ، لرأيْنا مِنْ إبْداعِهِ فِيها، طُرَفاً وَفُنُوناً.

فهُوَ يقُولُ فِي بَعْضِ فُصُولِهِ:

« وَيطُوفُ العِفْوُ [الجحْشُ] بِالنَّبْعَةِ [وَهِيَ شَجَرةٌ يُتَّخَذُ مِنْها القِسِيُّ] وَكَيْفَ لَهُ بِاجْتِثاثِ أَصْلِها، وَهُوَ لا يُفَرِّقُ بَيْنَها، وَبَيْنَ شَجَرَةِ الضِّرْوِ[1] »

وَيقُولُ فِي فصْلٍ آخَرَ:

« لَيْسَ مَنابِتُ النَّبْعِ فِي البَطْحاءِ ».

ثُمَّ يَشْرَحُها فيقُولُ: النَّبْعُ يَنْبُتُ فِي رُءُوسِ الجِبالِ، فإذا نَبَتَ فِي السُّفُوحِ والحَضِيضِ فهُوَ: الشَّوْحَطُ، فإذا نَبَتَ فِي السُّهُولِ، فهُوَ الشِّرْيانُ، وَمِنْ كُلِّ أَصْنافِهِ تُتَّخَذُ القِسِيُّ العَرَبِيَّةُ.

ثُمَّ يَعْرِضُ لِشجَرَةِ الضَّالِ، وَهِيَ لِشَجَرَةِ النَّبعِ صِنْوٌ، فيَقُولُ:

---

(١) هي الحبة الخضراء، أو شجرها، وثمره مسخن بدنٌ.

لَوْ عَلِمَتِ الضَّالَّةُ أَنَّ الصَّائِدَ يَبْتَرِى مِنْها قَوْساً يَذْعَرُ بِهَا الْوَحْشَ الآمِنَاتِ ، لأَظْهَرَتْ مِنْ ذٰلِكَ وُجُوماً[1] .

فَإِذَا تَرَكْنَا الْمُقَابَلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابن المقفع رَأَيْنَا شَاعِرَنَا يَذْهَبُ فِى الْحَدِيثِ عَنِ الْحَيَوَانِ مَذَاهِبَ فَنِّيَّةً أُخْرَى مُبْدَعَةً لَمْ يَكَدْ يَسْبِقُهُ إِلَيْهَا سَابِقٌ ، مُتَعَصِّباً لِلْفَأْرِ مُتَحَمِّساً لَهُ ، مُؤْثِراً حَيَاتَهُ عَلَى حَيَاةِ قَاتِلِهِ ، مُعْلِناً غَضَبَهُ على الْأَسَدِ لِتَعَرُّضِهِ لَهُ بِالْأَذَى والْفَتْكِ ، وَمُتَّخِذاً مِنْ ذٰلِكَ رَمْزاً لِبَطْشِ الْقَوِىِّ بِالضَّعِيفِ ، كما تَرَى فِى قَوْلِهِ :

مَوْتُ أُسَامَةَ (الْأَسَدِ) أَحْسَنُ بِهِ مِنِ افْتِرَاسِ البِرِّ (الْفَأْرِ) .

٥ — فأرتان

وَرُبَّمَا جَرَى عَلَى عادَتِهِ فِى الدُّعَابَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْمُقَابَلَاتِ

---

(١) وقريب من هذا قوله :

لو كانت الصليانة ذات حياة ، لأرعدت من شحيج العير ، وسمعت صوت الراعدة فلم تبال .

الكلامية ، بين الفأرة التي تسكن الدار فتعيث فيها فساداً ، وبين فأرة المسك التي تجتلب من « دارين » ، وكلتاهما فأرة دارية ، إحداهما منسوبة إلى الدار ، والأخرى منسوبة إلى « دارين » ، فيقول :

في الدنيا فأرتان ، داريتان :
إحداهما في دارك مختلبة (خادعة) ،
والأخرى من « دارين » مجتلبة .
تلك للأطعمة مطيبة ، وهذه لها مفسدة .

أو يقول :

كم قتلوا عاتقاً[1] ، وكم جرحوا
دناً ، وكم فأر تاجر ذبحوا

٦ — قصة الجني

ونراه يتمثل الجني « أبا هدرش » في رسالة الغفران

---

(١) العاتق : الزق الواسع ، الذي طابت رائحته لعتقه . وفرخ الطائر إذا طار واستقل .

وهوَ يُحدِّثُ صاحبهُ في جنَّةِ العفاريتِ كيْفَ تحوَّلَ فأراً، فيقولُ:

« دخلتُ مرَّةً دارَ أُناسٍ أُريدُ أنْ أصرعَ فتاةً لهُمْ، فتصوَّرْتُ في صورَةِ عضلٍ (جُرذٍ) فدعَوْا لي الضَّياونَ (القطَطَ)، فلمّا أرهقتْني تحوَّلْتُ صِلاًّ أرْقمَ، ودخلْتُ في قطيلٍ هناكَ (والقطيلُ جِذْعُ الشَّجرةِ يُقْطَعُ ويُلْقَى). فلمَّا عَلِمُوا ذٰلِكَ كشَفُوهُ عنِّي، فلمَّا خِفْتُ القتْلَ صِرْتُ رِيحاً هفَّافةً، فلحِقْتُ بالرَّوافِدِ (خشَبِ السَّقْفِ).

ونفَضُوا تِلْكَ الخُشُبَ والأَجْذالَ (أُصُولَ الشَّجرِ بعْدَ ذهابِ الفرُوعِ) فلَمْ يرَوْا شيْئاً فجعلُوا يتفكَّنُونَ (يتعجَّبُونَ) ويقولُونَ:

ليْس هاهُنا مكانٌ يُمْكِنُ أنْ يستترَ فيه

فبيْنماهُمْ يتذاكرُونَ ذٰلِكَ عمدْتُ لِكَعابِهِمْ (جاريتِهِمْ النّاهِدِ) في الكِلَّةِ[1] (السِّترِ الرَّقيقِ).

فلمَّا رأتْني أصابَها الصَّرْعُ، واجْتمعَ أهْلُها من كُلِّ

(١) وهو ما يسمى (الناموسية).

أوبٍ وجمعوا لهـا الرُّقاةَ ، وجاءوا بالأطبَّةِ ، وبذلوا المُنْفِساتِ ، فما ترك راقٍ رُقيةً إلا عرضها عليَّ وأنا لا أجيبُ. وغَبَرَتِ الأُساةُ (الأطبَّاءُ) تسقيها الأشفيةَ (الأدوية) ، وأنا سَدِكٌ بها لا أزولُ (مُلازِمٌ لها لا أفارقها).

فلمَّا أصابها الحِمامُ (الموتُ) طلبتُ لي سواها صاحبةً ، ثمَّ كذلكَ حتَّى رزقَ اللهُ الإنابةَ ، وأثابَ الجزيلَ ، فلا أفتأُ لهُ مِنَ الحامدِينَ .

٧ — الأسد والقط

ولا يفوتُه أنْ ينبِّهَ إلى تباينِ الصفَّاتِ واختلافِ السَّجايا والعاداتِ ، فيقرِّرُ أنَّ الأسَدَ لا يصيدُ الأسَدَ ، وأنَّ القطَّ — على هوانِ شأنهِ — يُعدُّ سبُعًا باطشًا غلاَّبًا إذا قيس إلى الفأرِ ، فيقولُ :

والسَّجايا شتَّى ، فلا يقنصُ اللَّيـ
ثُ هِزَبرًا ، والهِرُّ للفأر سبعُ

وهوَ في هٰذا يؤيِّدُ قولَهُ :

يُستصغَرُ الحيُّ الحقير ، وَتحته
أُممٌ توَهَّمُ أنّهُ جبّـــــارُ

ويُلمِّ بهِ في صُورَةٍ أخرى فيقُولُ :

يا فاسِقاً يتراءى أنهُ ملكٌ
وَفأرةً عِندَ قَوْمٍ أنَّها سبُعُ

وَرُبّما قالَ مُتحدِّثاً عَنْ نكباتِ الأيّامِ وكيْفَ تُعجِزُ الأسودَ فتسلُبُها قُواها وَترُدُّها مِثْلَ القطاطِ ، فَيَقُولُ :

ولا تأمَنَنَّ الحادثاتِ ، فإنها
ترُدُّ ليوثَ الغابِ مِثْلَ الضيّاونِ

وَهوَ يتّخِذُ عَلَى عادةِ الكُتّابِ وَالشُّعَراءِ مِنَ الفأرِ رمزاً للضّعْفِ ، فَيقُولُ مُندِّداً بخطإِ مَنْ يتجاوزُ قُوّتَهُ وَيَتخطى قُدْرَتَه ، مُستدِلاً عَلَى ذلكَ بِضعْفِ وَلَدِ البَقَرَةِ الوَحْشيّةِ بالقِياسِ إلَى الذِّئْبِ ، وضَعْفِ الفأْرِ بالقِياسِ إلى الهِرِّ ، فيقُولُ :

وكَمْ مُصابرةُ الذّرعِ (وَلَدِ البقرَةِ الوَحْشيّةِ[1]) لابسَ

(١) يعني أن ولد البقرة الوحشية يعجز عن مقاومة الذئب ولا يلبث أن يقع فريسة له .

الدَّرَعِ (الذئب)، وَالبِرّ (الفَأرَةِ) الهر .

٨ – سطوة الأسد

فإذا انتقلنا مع شيخنا الجليل من عالم الفأر إلى عالم الأسد، رأينا فنوناً من بدائعه وألواناً من روائعه.

على أنه في جمهور أدبه لا يألو جهداً في إظهار سخطه على الأسود، وإعلان غيظه من تحكمها في الأبقار الوحشية وغيرها، فيقول:

بأيّ جرمٍ، وأيّ حكمٍ سُلِّطَ ليثٌ على مَهاها؟

وربما التمس عذراً للضواري في فتكها بفرائسها فقال:

ولولا حاجةٌ في الذئب تدعو
لصيدِ الوحشِ، ما اقتُنِصَ الغزالُ

وربما علل نفسه بالمحال، وتمنى ما لا سبيل إلى بلوغه من الأمانيّ والآمال، فقال:

أيكونُ دفعٌ للشرور فينتهي
غاوٍ، ويقنعُ بالنبات الضيغمُ

ولكنه لا يلبث أن يستدرك ما فرط منه، ويعود إلى عالم الحقائق، سائلاً: كيف يتسنى ذلك وقد ركبت أظفارها للفرس؟

«وما جعلت لأسود العرين أظافر، إلا ابتغاء الظفر»

وقد جرت مشيئة الخالق أن يمنحها من الأظفار والأنياب، ما يهيئ لها الفتك بفرائسها:

ولو لم يقدر خالق الليث فرسه
لمطعمه، لم يعطه الناب والظفرا

وهل ساد الأسد وهيمن على غيره من ضروب الحيوان بغير نابه وظفره:

« أليس هزبر الغاب — وهو مملك
على الوحش — يبغي الصيد بالناب والظفر؟ »

ولو شاء خالقه لأعمى عينيه، فكف بذلك أذاه وشره عن أسراب الضأن الآمنة في مراتعها:

وَلو ذَهبَتْ عَينا هزبرٍ مُساورٍ (١)

لَمَا راعَ ضأناً — في المراتِعِ — أوْ سِرْبا

عَلَى أنَّ القَضاءَ يَأبَى لأظافرِ اللَّيثِ الفاتِكَةِ الباطِشَةِ إلاَّ أنْ تطولَ ، بَيْنما تجرِى عادةُ الأناسىِّ بتَقْلِيمِ أظافِرِهِمْ ، عَلَى عجزِها عن الضَّررِ ، إذا قِيستْ إلى أظفارِ الأسُودِ :

أرأيتَ أظفارَ الضَّراغِمِ عُوِّدَتْ

فِرَةً (٢) ، وأظفارُ الأنيسِ تُقَلَّمُ (٣)

ولَوْ شاءَ القَضاءُ لقلَّمَ أظفارَها ، كَما يُقلِّمُها الموتُ الَّذِى يَطْوِى كُلَّ شَىْءٍ :

وَجَدْتُ يَدَ الوَهَّابِ تُطْوى ، وعَيْنَهُ

تُكَفُّ ، وأظفارَ اللُّيُوثِ تُقَلَّمُ

وَلَوْ شاءَ لألْجَمَ الأسودَ والوُحُوشَ فكفَّ أذاها عَن النَّاسِ ، فَما يُعجِزُ قُدرةَ اللهِ شَىءٌ مَهْما عظُمَ :

---

(١) مساور : مواثب غلاب باطش

(٢) فرة أى : وفرة يعنى أنها تامة كاملة لا ينقصها أحد

(٣) قلمت الظفر : أخذت ماطال منه .

« وَبِالْقَضاءِ لَآسادِ الشَّرَى لُجُمٌ
وَلِلْوُحُوشِ — بِإِذْنِ اللهِ — أَرْسانُ »

وَلا غَرْوَ فِي ذٰلِكَ فَالأُسودُ عاجِزَةٌ أَمامَ الْقَضاءِ ، كَما تَعْجِزُ الأَرانِبُ سَواءً بِسَواءٍ :

قَدْ أَرانِي الْقِياسُ أَنَّ لُيُوثَ الْـ
ـغابِ — فِيما يَنُوبُ — مِثْلُ الأَرانِي(١)

وَقَدْ مَرَّ بِكَ ذٰلِكَ الْبَيْتُ الرّائِعُ الَّذِي خَتَمْنا بِهِ الْفَصلَ الثانِيَ وَهُوَ قَوْلُهُ يَصِفُ كَيْفَ عَصَفَ الْقَضاءُ بِساكِنِي الْغابَيْنِ مِنْ أُسُودٍ وَأَرانِبَ :

سَلا « غابَ تَرْجٍ » وَ « الأُنَيْعِمِ » : كَمْ ثَوَى
— بِذاكَ وَهٰذا — مِنْ أُسُودٍ وَخِزّانِ

وَأَيُّ عَجَبٍ فِي ذٰلِكَ ، وَكُلُّ ما فِي الوُجودِ هالِكٌ :

---

(١) تقول فى جمع أرنب : أرانب وأرانى ، كما تقول فى جمع ضفدع ضفادع وضفادى .

وَالطّيرُ ، والوحْشُ : غاديها ورائحُها
واللّيثُ وَالشّبلُ وَالذيّالُ وَالذّرعُ (١)

وهوَ في البيْتِ التّالي يرْسمُ لوْحاً مُختصراً يُصوّرُ
الْقضاء وَهوَ يَعصِفُ بكلّ من يُصادِفُهُ مِنْ ظَبيٍ وَأسدٍ ،
غيْرَ مفرّق بيْنَ وَالدٍ منها وما وَلدَ :

يُصادِفُ الظّبيُ وَابْنُ الظّبيِ قاضيةً
مِنْ حتْفِهِ ، وَكذاكَ الشّبلُ وَالأسَدُ

ومِنْ طرائفِهِ اللفظيّةِ المُسْتَمْلحَةِ في هذا البابِ قوْلُهُ
يَصِفُ عادياتِ الأيّامِ :

أعادتْ أُسْدَها أسَداً أكيلاً وأوْدى ذِئبُها بأبي ذُؤيبِ (٢)

ثُمّ يُمثّلُ لكَ في البيْتِ التّالي كيْفَ تلْقى الأُسُودُ
مصارعَها بعْدَ طولِ افتراسِها فيقول :

لقدْ فرَستْ تِلْكَ الأُسودُ طوائفاً
أنيساً ، ووَحْشاً ، ثم أدْركَها الفرْسُ

---

(١) الذرع ولد البقره الوحشية .
(٢) وقريب من هذا قوله : متلاعبا بالألفاظ : « واسأل الأسد كم في محته من أسد » .

أوْ يقُولُ :

يُنَشَّرُ فى الدُّنْيا حديثٌ ، وَينْطوى

وتَفْرِسُ آسادُ الْعَرينِ ، وتُفْرَسُ

أَوْ يقُولُ :

كمْ أَبَنَّ(١) الغابَ مِنْ أَسَدٍ

أَىُّ لَيْثٍ لَيْسَ يُفْتَرَسُ ؟

ثُمَّ يَصِفُ ما تلقاهُ الْأُسُودُ مِنْ صُرُوفِ الأيَّامِ وحُتومِ الْقَضاءِ الَّذى لا يَرْحَمُ أَرْنَباً ، ولا يَخافُ أَسداً ، فيَقُولُ :

شَكا خُزَزٌ(٢) حوادِثَها ولَيْثٌ

فما رَحِمَ الزَّئِيرَ ، ولا الضُّغْيبا(٣)

ثُمَّ يُبْدِعُ فى وَصْفِ شَبكَةِ الْموْتِ الَّتى لا يُفْلِتُ مِنْها ظَبْىٌ ولا أَسَدٌ ، فيَقُولُ :

حِبالَةٌ لا يُرَجَّى الظَّبْىُ مَخْلَصَةً

مِنْها ، وأَنَّى إذا لَيْثُ الشَّرى حُبِلا

---

(١) بن بالمكان وأبن به : سكنه وأنام فيه .

(٢) خزز أى : أرنب . (٣) الضغيب : صوت الأرنب

فَيُذكّرنا بقولِه في صباهُ :

وكيفَ تنامُ الطيرُ في وُكُناتِها
وقدْ نُصِبَتْ للفرْقدينِ الحبائلُ

وَقوله في كُهُولَتِهِ :

وجرَى الْحَتْفُ بالْقضاء فَما يَسْـ
ـلمُ لَيْثٌ ولا غزالٌ رَبِيبُ

وقوله :

سَواءٌ عَلَى هذا الحِمامِ : أَضَيْغَمَاً
أَذادَ المنَايا ، أَمْ تَوقَّى بِها دِرْصا(١)

ومنْ لفتاتهِ الذِّهْنيَّةِ قولهُ :

يَجْرِى الْقضَاء ، فَيَهْدى الْعِيسَ كَارِهَةً
إِلَى الضَّراغِمِ ، فى الْأقيادِ والْعُقُلِ(٢)

(١) فأراً . (٢) الأقياد : جمع قيد ، والعقل ما يعقل به كالقيد أو العقال وهو الحبل الذى يعتقل به البعير ، أو يثنى وظيفه مع ذراعه ويشدان معاً بالعقال فى وسط الذراع ، وقد يفعل به ذلك وهو قائم أو بعد إناخته ، يعنى أن القضاء يسوقها مقيدة لتفترسها الأسود .

وقَوْلُهُ :

وما تَبْـقَى الأَراقِمُ فى حِماها
ولا الأُسْدُ الضَراغِمُ فى ثَراها

وقولُهُ :

وَالْمَوْتُ يَعْدو عَلَى الآسادِ مُخْدَرَةً(١)
والعِينِ(٢) بَيْنَ خُزاماها وأَرْطاها(٣)

وقولُهُ :

وأَعْجَبُ لِلهَرّارِ(٤) سُمِّىَ ضَيْغَماً
ولِلْعَيْرِ يُدْعَى بِالجوادِ الْمُطَهَّمِ

أَوْ يَقُولُ :

أَيَعْلَمُ اللَّيْثُ لَمّا راح مُفْتَرِساً
بِأَنَّهُ ـ عَنْ قَرِيبٍ ـ سَوْفَ يُفْتَرَسُ(٥)

---

(١) لازمة خدرها ، مستترة فى عرينها (٢) البقر من الوحش .
(٣) الخزامى : نبـات طيب الزهر ، والأرطى : شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب . (٤) الهرار : الكلب إذا كشر عن أنيابه .
(٥) . وعند شاعرنا أن مصارع العظماء كمصارع الحقراء :

وتهلك أعيان الرجال وإنما مصارع أعيار ، كمصرع أعيان

وقريب من هذا قوله :

وهل أجل عظيم من رجالهم إذا تأملت إلا ماعز ذبحا

أو يَقُولُ :

وإنْ رأيتَ هِزَبْرَ الغابِ مُفترِساً

فقدْ يكونُ زمانٌ وهوَ فرّاسُ !

٩ — أَسَدُ النُّجومِ

وكثيراً ما يَسْبَحُ بِهِ خيالُهُ الوثّابُ فيقابِلُ بينَ الأسدِ الضّارِى فى العالمِ الهاوِى ، والأسدِ الكوكبِىّ فِى العالمَ العالِى ، فيَقُولُ :

فمِنْ أسدٍ يُعَدُّ مِنَ الضّوارِى

ومِنْ أسدٍ يُعَدُّ مِنَ النُّجومِ

أو يَقُولُ :

لَوْ عُذْتَ مِنْ أسَدِ النُّجومِ بِجَبْهَةٍ

أو بِتَّ فى ذَنَبِ لِشَبوةِ شائلِ

أو يَقُولُ فى هٰذهِ الرِّسالةِ مُتحدِّثاً عن شِبْلِ الدّوْلَةِ ، ومُشيرَيْهِ اللّذَيْنِ كانا أوّلَ باعثٍ لَهُ عَلى كِتابةِ هذهِ الرِّسالةِ : وسيّدانا الأُستاذانِ ـ أذلَّ اللهُ مُعانِدَهُما أُخرَى المَنونِ ـ

إذا كان شبلُ الدَّولةِ أسدَ النجومِ كانا لا محالةَ ذراعيْهِ ، وإنْ أغلقَ بابَ الرَّأفةِ فتحا مصراعيْهِ » . أو يقولُ في فصولِهِ :

« اللهُ أكبرُ . . . حتّى يقعَ الأسدُ وذراعاهُ وجبهتُهُ وسائرُ كواكبِهِ ، فيكونَ ليثاً في الغابِ ، يطلبُ لشبليهِ لحومَ الرِّجالِ » .

ومِنْ بدائعِ صورِهِ قولُه يتمثَّلُ الرَّعدَ أسداً :

تهزَّمَ الرَّعدُ حتّى خِلتُهُ أسداً
أمامهُ – مِنْ بروقٍ – ألسُنٌ دُلُعُ

وقولُهُ منتصراً للظبيِ منحياً باللائمةِ على الأسدِ :

يهاجِرُ غابةُ الضرغامُ كيما
ينازِعُ ظبيَ رملٍ في كناسِ

١٠ — الأسدُ الرَّهيصُ

ولا يفوتُهُ أنْ يشيرَ في بعضِ رسائلِهِ إلى الأسدِ الرَّهيصِ ، وهو لقبُ وزرِ بنِ جابرٍ النبهانيِّ قاتلِ « عنترةَ » فيقولُ :

عنترة عبْس ،

لَقِىَ مِنَ الْأَسَدِ الرَّهِيصِ

سَاعَةَ أَبْسٍ ، (ساعة سُوءٍ وقَهْر)

١١ — الاسَدُ والشَّجَرُ

أَو يَقُولُ : جارِياً عَلَى عادَتِهِ فى التَّلاعُبِ بِالْأَلْفاظِ :

وربُّكَ قاسِمُ الْأَرْزاقِ :

إِنَّ الْوَحْشِيَّةَ أَكَلَت الْقَسْوَرَ (وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ النَّبْت)

فى رَأْدِ النَّهارِ (ارتفاعِهِ)

وأَكَلَها الْقَسْوَرُ (الْأَسَد) بِالْأَصيلِ .

وَاللهُ بِمَا كانَ مِنْهُمَا عالِمٌ خَبِيرٌ (١)

١٢ — كَيْدُ النَّاسِ

عَلَى أَنَّ كَيْدَ الْأَناسِيِّ — فِيما — يَرَى — قَدْ تَغَلَّبَ

عَلَى شَجاعَةِ الْأُسُودِ :

(١) يقول : ان ذلك كله قد تم بارادة الله — سبحانه — ومشيئته :
ولو لم يرد جور البزاة على القطا ... مصورها ، ما صاغهـا عناسر

فالُ حوّاء راعُوا الأُسْدَ مُخْدرَةً
ولَمْ يُغادُوا بِسلْمٍ ربّةَ الْوجَرِ[١]

وقريبٌ مِنهُ قوْلُهُ :

يا حُرة : أمَا تخافِينَ الجرة (وهى ضرب من مصائد الظباء) إنّكِ لَذاتُ جُرْأةٍ عَلَى جِراء الْمأْسَدَةِ[٢] .

وَقوْلُهُ :

إذا الأَصاغِرُ لاقَتْها أكابِرُها
فَتِلْكَ للشّرِّ أشْبالٌ وَآسادُ

وَقوْلُهُ :

يَكْرَهُ عَوْلَ الشّيْخِ أبْناؤُهُ
وَهلْ تَعُولُ الأُسْدَ الأَشْبُلُ ؟

---

(١) الوجر : جمع وجرة كقصبة وقصب وهى حفرة تجعل للوحش اذا مرت بها عرقبتها ، وليست هذه اللفتات بمستغربة ممن يقول :

فياليت أنى لم أكن فى برية وإلا فوحشيا باحدى الأمالس

وقوله :

وما الظبيات منى خائفات وردن على الأصائل أو ربضنه

(٢) الجراء : أولاد الأسد ، واحدها جرو ، والمأسدة موضع الأسود .

وَقَوْلُهُ :

قَوْمٌ سَوْءٌ ، فَالشِّبْلُ مِنْهُمْ يَغُولُ اللَّ
يْثَ فَرْساً ، وَاللَّيْثُ يَأْكُلُ شِبْلَهْ

وَقَوْلُهُ :

رَبَيْتَ شِبْلاً ، فَلَمَّا أَنْ غَدا أَسَداً
عَدا عَلَيْكَ ، فَلَوْلاَ رَبُّهُ أَكَلَكْ !

وَقَوْلُهُ :

وَكَمْ أَيَّمُوا مِنْ ضَيْغَمٍ أُمَّ أَشْبُلٍ
وَكَمْ أَثْكَلُوا مِنْ أُمِّ شَادٍ وَشَادِنٍ ؟

وَما أَكْثَرَ ما يَفِيضُ شاعِرُنا بِالشَّكْوَى مِنْ بَغْيِ الْإِنْسانِ وَافْتِئاتِهِ عَلَى الْحَيَوانِ ؛ فَهُوَ يَقُولُ :

وَيَنْصِبُونَ لِوَحْشِيِّ حَبائِلَهُمْ
أَوْ بِالسِّهامِ — عَلَى عَمْدٍ يَشُكُّونَهْ

أَوْ يَقُولُ مُفَضِّلاً الْوَحْشَ عَلَى الْآدَمِيِّ :

أَزْكَى مِنَ الْعِينِ(١) — فِي آنافِها شَمَمٌ

عِينٌ(٢) من الْوَحْشِ فِي آنافِها خَنَسُ(٣)

أَو يَقُولُ :

فَلْتَلْبَسِ الْوَحْشُ نُعمى لا حِذاءَ لَها

يَقِي التُّرابَ ، وَلا لِلْهامِ تَرْجِيلُ(٤)

وَهذا الْمَعْنَى قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ يُخاطِبُ الذِّئْبَ :

وَما كَسَوْتَ إِذا قَرٌّ أَتَى جَسَداً

وَلاحَذَوْتَ — حِذارَاللْوَجَى — قَدَما

وَمِنْ بَدائِعِ لَفَتاتِهِ قَوْلُهُ يُسائِلُ نَفْسَه : هَلْ بَرِئَتْ
مِنَ الحسدِ اجناسُ الْحَيوانِ فيقُولُ :

فينا التَّحاسُدُ مَعْرُوفٌ فَهَلْ حَسَدَتْ

مُجْتَرَّةُ الْإِبْلِ أُخْرى مالَها جِرَرُ ؟

أَو يَقُولُ :

وَلا وَرْدُ غابٍ ، لَهُ حُلَّةٌ مِنَ الدَّمِ فى الْغِيلِ وَرْدِيَة

---

(١) أهل البلد ، والجماعة . (٢) بقر وحشى

(٣) قصر الأنف وتأخر أرنبته .

(٤) يعنى : أنها لاتحتاج إلى تمشيط رأسها وتسريحه .

أَوْ يقولُ :

إِنى لَمِنْ آلِ حَوّاءَ الّذينَ هُمُ
ثِقْلٌ عَلَى الأَرْضِ غانِيها وَعافِيها(١)

جارُوا عَلَى حَيَوانِ البَرِّ ثُمَّ عَدَوْا
عَلَى الْبِحار ، فَغالَ الصَّيْدُ ما فِيها

لَمْ يُقْنِعِ الْحَىَّ مِنْها ما تَقَنَّصَهُ
حَتّى أَجازَ أُناسٌ أَكْلَ طافِيها

أَوْ يَقُولُ :

وَلَيْسَ أَخُوكَ إِلاّ لَيْثَ غابٍ
يَسُورُ إِلَى افْتِراسِكَ بافْتِراصِ(٢)

وَمِنْ مُقابَلاتِهِ بَيْنَ طَبْعَي الإِنْسانِ وَالأَسَدِ ، قَوْلُهُ يَصِفُ أُلْفَةَ الأُسُودِ للظَّلامِ ، وَنَفْرَةَ الأَناسِيِّ مِنْهُ :

---

(١) غانيها : آهلها وعامرها ، وعافيها : دارسها .

(٢) الافتراص : مصدر افترصه أصاب فريصته ، والفريصة واحدة أوداج العنق .

« جَزِعَ نَزِيعٌ ، (غَرِيبٌ) مِنْ ظُلْمَةِ الْهَزِيعِ ، (الْقِطْعَةِ مِنَ اللَّيْلِ) ، وَالْاسُودُ ، لَا تَفْزَعُ مِنَ اللَّيَالِي السُّودِ . »

وَهُوَ فِي هٰذَا اللَّوْحِ يَصِفُ مَائِدَةَ الْأُسُودِ ، فَيَقُولُ :

الْوِحَافُ ، (الْأَرَاضِي السُّودُ ، أَوِ الْحُمْرُ) ،

لَهُنَّ مِثْلُ الصِّحَافِ ،[1] (الْأَطْبَاقِ)

ثُمَّ يَصِفُ عُزْلَتَهُنَّ فَيَقُولُ :

يَتَّحِدْنَ (مِنَ الْوُحْدَةِ) فَلَا يَجِدْنَ[2] .

وَيُوَالِينَ الصَّيْدَ فَلَا يُبَالِينَ ،

مَا رَمَنَ (مَا بَرِحْنَ) يَفْعَلْنَ ذٰلِكَ إِلَى أَنْ هَرِمْنَ ،

وَيَقْتَرِنَ الرَّكْبَ (يَتَتَبَّعْنَ) ، فَلَا يَقْرِينَ (لَا يَطْلُبْنَ ضِيَافَةً وَلَا يَلْتَمِسْنَ الْقِرَى وَهُوَ مَا يُقَدَّمُ لِلْأَضْيَافِ مِنْ طَعَامٍ) وَرُبَّمَا بِتْنَ وَقَدْ عَنِتْنَ (وَقَعْنَ فِي أَمْرٍ شَاقٍّ ، وَلَقِينَ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِنَّ تَحَمُّلُهُ) فَسَبَّحْنَ — لَيْلَهُنَّ — حَتَّى أَصْبَحْنَ ! »

* * *

(١) يعني أنهن يأكلن فرائسهن على الأرض ، فكأن الأرض صحفة لطعامهن .

(٢) يجدن : يغضبن أو يشعرن بالحزن ، يعني أنهن يألفن العزلة فلا يشعرن بالوحشة إذا انفردن ، وهن بذلك على العكس من الأناسي .

ومن مختار صوره في تمثل مفاجئات القدر ، وكيف يفر الخائف الحذر ، فلا ينجيه خوف ، ولا ينفعه حذر ، قوله في لزومياته :

بينا امرؤ يتوقى الذئب — عن عرض —
أتاه ليث — على الملات — يفترس

وقد عرض لهذا المعنى — فجلاه في صورة أخرى من فصوله ، تمثل بعض الوعول ، وقد انعطف قرناه حتى أصابا عجزه — أو ظهره ، وقد ناء باحتمال البرد القارس ، وعجز عن توقيه ، فلاذ بالفرار لعله يظفر — في عدوه وجريه — بشيء من الدفء ، فإذا به يلقى مصرعه وشيكا على يد أسد فراس ؛ يفزع — لهول مرآه — كل من رآه ، ثم يلتمس للأسد عذره فيما فعل ، لأن حياته قائمة — بإذن الله — على الفتك والعدوان ، وافتراس غيره من صنوف الحيوان » ، قال :

«فر الناخس [الوعل] الذي قد انعطف قرناه حتى أصابا

عَجُزَهُ أَوْ ظَهْرَهُ] مِنَ الْقَرِيسِ، [الْبَرْدِ]، فَإِذَا هُوَ، فَرِيسٌ [مُفْتَرِسٌ]، طَلَبَ الْأَدْفَى [الْوَعِلُ الَّذِي انْعَطَفَ قَرْنَاهُ عَلَى ظَهْرِهِ] الدِّفْءَ، فَلَقِيَهُ ذُو نَافِضٍ[1] مِنَ الْآسَادِ،

وَاللهُ جَعَلَ رِزْقَ الضَّيْغَمِ فِي الْحَيَوَانِ.

* * *

وَفِي إِحْدَى رَسَائِلِهِ صُورَةٌ حَزِينَةٌ تُمَثِّلُ بَقَرَةً جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ، يَزِينُ جِلْدَهَا أَلْوَانٌ مِنَ الْخُطُوطِ وَالنُّقُوشِ، تَنْعَمُ فِي مَرْعَاهَا مَعَ صَغِيرِهَا الْمَحْبُوبِ: مَنَاطِ رَجَائِهَا، وَمَعْقِدِ أَمَلِهَا — فِي الدُّنْيَا — وَمَصْدَرِ عَزَائِهَا، وَهِيَ تَرُوضُهُ عَلَى الْفِطَامِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَتَغْذُوهُ بِلَبَنِهَا حِينًا بَعْدَ أَحْيَانٍ، وَقَدْ حَلَا عَيْشُهُمَا، وَطَابَ لَهُمَا الزَّمَانُ، وَنَسِيَتْهُمَا صُرُوفُ الدَّهْرِ وَمُفَاجَئَاتُ الْحِدْثَانِ.

وَبَقِيَتْ مَشْغُولَةً عَنْ وَلَدِهَا — ذَاتَ يَوْمٍ — بِذَلِكَ الْمَرْعَى الْأَنِيقِ، وَقَدْ أَكَلَتْ مِنْ زَادِهِ الْهَنِيءِ، وَتَنَاوَلَتْ مِنْ طَعَامِهِ الْمَرِيءِ، مَا أَشْبَعَهَا وَمَلَأَ ضَرْعَهَا (ثَدْيَهَا) لَبَنًا.

(١) النافض، حمى الرعدة.

فَلَمَّا تَمَّ لَهَا مِنَ الرَّعْيِ ما أَرادَتْ ، ذَكَرَتْ وَلَدَها الْحَبِيبَ ، كَيْفَ خَلَّفَتْهُ فِي إِحْدَى الْفَلَوَاتِ ، أَوْ نَسِيَتْهُ فِي بَعْضِ الْمَفَازَاتِ ، وَاشْتَدَّ إِشْفَاقُهَا عَلَيْهِ ، وَحَنِينُهَا إِلَيْهِ ، فَأَسْرَعَتْ الْبَقَرَةُ الْوَحْشِيَّةُ ، لِتُمْتِعَ فِلْذَةَ كَبِدِهَا ، بِمَا أَعَدَّتْهُ لَهُ فِي ضَرْعِهَا ، مِنْ زَادٍ سَائِغٍ هَنِيءٍ ، يَرْضَعُهُ أَفَاوِيقَ مِنْ لَبَنِهَا الْمَرِيءِ ، وَما كادَتِ الْبائِسَةُ تَصِلُ إِلَيْهِ حَتَّى اشْتَدَّ هَلَعُهَا عَلَيْهِ ، فَجَزِعَتْ وَتَفَزَّعَتْ ، وَهالَها ما رَأَتْ ، فَأَنَّتْ وَتَوَجَّعَتْ ، فَلَمْ تَظْفَرْ مِنْ وَحِيدِها بِغَيْرِ أَجْزاءٍ .

إِذْ لَمْ يُبْقِ مِنْهُ الْأَسَدُ غَيْرَ رَأْسِهِ مُتَناثِراً مُمَزَّقاً ، وَشِلْواً مِنْ جَسَدِهِ مُبْعَثِراً مُتَفَرِّقاً ، وَلَمْ يَتْرُكْ بَعْدَ ذٰلِكَ غَيْرَ يَدَيْهِ ، وَجِلْدِهِ وَرِجْلَيْهِ .

* * *

فَإِذا انْتَهَى شاعِرُنا مِنْ إِبْداعِ هٰذِهِ الصُّورَةِ الْمُفْجِعَةِ ، أَفْضَى إِلَيْنا — عَلَى عادَتِهِ — بِالْمَصْدَرِ الَّذِي أَوْحاها ، وَأَلْهَمَهُ إِيّاها ، فَنَبَّهَنا شاعِرُنا إِلَى أَبْياتٍ رائِعَةٍ أَبْدَعَها « الْقُطامِيُّ » الشّاعِرُ فِي وَصْفِ ناقَتِهِ ، وَهِيَ تَكادُ تَطِيرُ لِخِفَّةِ سَيْرِها ،

حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْهِ — لِفَرْطِ سُرْعَتِهَا — أَنَّهَا وَحْشِيَّةٌ مُوَلَّهَةُ الْقَلْبِ، مَسْلُوبَةُ اللُّبِّ، تَذْرَعُ الْفَلَوَاتِ فِي سُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ، بَعْدَ أَنْ رُزِئَتْ — مُنْذُ قَلِيلٍ — فِي طِفْلِهَا، وَحُرِمَتْ بِذٰلِكَ عِدْلَ نَفْسِهَا، وَأَضَاعَتْ بِفَقْدِهِ مَصْدَرَ أُنْسِهَا:

فَكَرَّتْ عِنْدَ فَيْئَتِهَا إِلَيْهِ[1]

فَأَلْفَتْ — عِنْدَ مَرْبَضِهِ — السِّبَاعا

لِعِبْنَ بِهِ، فَلَمْ يَتْرُكْنَ إِلَّا

إِهَابًا[2] — قَدْ تَمَزَّقَ — أَوْ كُرَاعَا[3]

١٣ — فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ

وَقَدْ تَمَثَّلَ الْأَسَدَ شَاعِرُنَا فِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ، يَلْقَاهُ صَاحِبُهُ «ابْنُ الْقَارِحِ» فِي الْجَنَّةِ وَهُوَ يَسِيرُ مُتَنَزِّهًا فِي الْفِرْدَوْسِ، فَيَرَاهُ ابْنُ الْقَارِحِ لَمْ يُغَيِّرْ مِنْ عَادَتِهِ فِي الْفَتْكِ بِالْحَيَوَانِ وَالتَّلَذُّذِ بِافْتِرَاسِهِ، وَيَسْتَدْرِكُ شَاعِرُنَا — كَمَا نَبَّهْنَا إِلَى ذٰلِكَ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ — فَيُمَثِّلُ لَنَا فَرَائِسَ الْأَسَدِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا تُؤْذَى بِظُفْرٍ

(١) عند رجعتها وعودتها إليه. (٢) الاهاب: الجلد. (٣) الكراع — من البقر والبقر والغنم — بمنزلة الوظيف من الفرس، وهو: مستدق الساق.

وَلا نابٍ ، بَلْ تُسَرُّ وَتَلْتَذُّ بِما كانَتْ تَأْلَمُ لَهُ مِنَ الذَّبْحِ وَالْقَتْلِ فى الدَّارِ الْأُولَى . وَبِهٰذِهِ الْإِشارَةِ لا يَتَناقَضُ « أَبُو الْعَلاء » مَعَ نَفْسِهِ فِى تَحْرِيمِ ذَبْحِ الْحَيَوانِ الَّذِى يَرَى لَهُ مِثْلَ ما يَرَى لِلْإِنْسانِ مِنَ الْحَقِّ فِى الْحَياةِ وَالتَّمَتُّعِ بِها .

وَفِى هٰذِهِ الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ يَقُولُ أَبُو الْعَلاء :

وَيْحُمْ[1] ، فَإِذا هُوَ بِأَسَدٍ يَفْتَرِسُ مِنْ صِيرانِ[2] الْجَنَّةِ ، وَحَسِيلِها[3] ، فَلا تَكْفِيهِ مِائَةٌ وَلا مِائَتانِ فَيَقُولُ (ابْنُ الْقارِحِ) فِى نَفْسِهِ :

« لَقَدْ كانَ الْأَسَدُ يَفْتَرِسُ الشّاةَ الْعَجْفاء[4] فَيُقِيمُ عَلَيْها الْأَيّامَ ، لا يَطْعَمُ سِواها شَيْئًا » .

فَيُلْهِمُ الْأَسَدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ — وَقَدْ عَرَفَ ما فِى نَفْسِهِ — فَيَقُولُ :

يا عَبْدَ اللهِ ! أَلَيْسَ أَحَدُكُمْ فِى الْجَنَّةِ تُقَدَّمُ لَهُ الصَّحْفَةُ[1] فَيَأْكُلُ مِنْها مِثْلَ عُمُرِ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ ، يَلْتَذُّ بِما

---

(١) يسير . (٢) قطعان بقر الوحش .
(٣) أولاد البقر . (٤) الهزيلة .

أصابَ ، فلا هُوَ مُكْتَفٍ ، وَلا هِيَ الْفانِيَةُ ! وَكَذٰلِكَ أنا أَفْتَرِسُ ما شاءَ اللهُ ، فلا تَأْذَى الْفَرِيسَةُ بِظُفْرٍ وَلا نابٍ ، وَلٰكِنْ تَجِدُ مِنَ اللَّذَّةِ كَما أَجِدُ بِلُطْفِ رَبِّها الْعَزِيزِ ! أَتَدْرِى مَنْ أَنا ؟ أنا أَسَدُ الْقاصِرَةِ الَّتِى كانَتْ فِى طَرِيقِ مِصْرَ ، فَلَمَّا سافَرَ « عُتْبَةُ بْنُ أَبِى لَهَبٍ » يُرِيدُ تِلْكَ الْجِهَةَ ، وَقالَ النَّبِيُّ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْباً مِنْ كِلابِكَ (٢) » أُلْهِمْتُ أَنْ أَتَجَوَّعَ لَهُ أَيَّاماً ، وَجِئْتُ وَهُوَ نائِمٌ بَيْنَ الرُّفْقَةِ ، فَتَخَلَّلْتُ (٣) بَيْنَ الْجَماعَةِ إِلَيْهِ وَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ بِما فَعَلْتُ » .

---

(١) القصعة الكبيرة المنبسطة .

(٢) الكلب (هنا) : الأسد ، وفى الحديث : « أما تخاف أن يأكلك كلب الله ؟ فجاء الأسد ليلا فاقتلع هامته من بين أصحابه » .

(٣) دخلت بينهم ، أو خلال دارهم .

الفصل الخامس

مَصْرع أُسامة

١ — القصـــة الأولى

وَلَقَدِ افْتَنَّ شاعِرُنا — عَلَى عادَتِهِ — أَيَّما افْتِنان ، فِي تَصْوِيرِ مَصارِعِ الْأُسُودِ ، وَأَوْدَعَ أَلْواحَهُ — مِنْ رَوائِعِ الْأَخْيِلَةِ — صُوَراً فَنِيَّةً نادِرَةً . يُحْسِبُنا مِنْها لَوْحَانِ ، نَخْتِمُ بِهِما هٰذا الْحَدِيثَ بَعْدَ أَنِ امْتَحَنَّا صَبْرَ الْقارِئِ ، فَنَجَحَ فِي الامْتِحانِ أَوْفَى نَجاحٍ ، وَاسْتَغْلَلْنا كَرَمَهُ فَكانَ مَثَلاً لِلْبَذْلِ وَالسَّماحِ .

وَإِلَى الْقارِئِ قِصَّةُ أَحَدِ الْمَصْرَعَيْنِ ، الَّذِي تَعَرَّضَ لَهُ أَوَّلُ الْأَسَدَيْنِ قالَ نَقْبِسُها مِنْ بَعْضِ رَسائِلِهِ ، فِيما يَلِي :

— ١ —

لا يُفْلِتُ — مِنْ مَخالِبِ الْأَيَّامِ — أَسَدٌ غَضَنْفَرٌ ،
لا يَطْعَمُ النَّباتَ وَلا الشَّجَرَ ،
وَلا يَسْتَمْرِئُ الْفاكِهَةَ وَلا الثَّمَرَ ،

وَلٰكِنَّهُ يَفْتَرِسُ صَيْدَهُ — مِنَ الْأَحْيَاءِ — مَعَ ضَوْءِ كُلِّ شَارِقٍ (١)،

لَا يَخْتِلُهُ خَتْلَ الذِّئْبِ الطَّارِقِ،

وَلَا يَخْتَلِسُهُ اخْتِلَاسَ اللِّصِّ السَّارِقِ،

بَلْ يَقْتُلُهُ فِي جُرْأَةِ الْغَاصِبِ الْوَاثِقِ.

فَهُوَ لَا يَأْخُذُ فَرِيسَتَهُ غِيلَةً وَمُخَاتَلَةً،

بَلْ يَنْتَهِبُهَا مُغَالَبَةً وَمُصَاوَلَةً.

إِذَا عَايَنَتْهُ الْجَمَاعَةُ مِنَ الْحُمُرِ الْوَحْشِيَّةِ رَوَّعَهَا، فَوَلَّتْ مُدْبِرَةً، وَهَرَبَتْ نَافِرَةً،

وَإِذَا آنَسَتْ مِنْهُ الرُّفْقَةُ شَبَحًا، ذَعَرَ السَّافِرَةَ،

وَرَاعَ — بِطَلْعَتِهِ — الْقَافِلَةَ،

وَأَخَافَ — بِمَرْآهُ — السَّابِلَةَ،

تَخَالُ عَيْنُهُ جَذْوَةً مُتَقِدَةً مِنَ الْغَضَبِ،

أَوْ جَمْرَةً مُتَأَجِّجَةً مِنَ اللَّهَبِ،

أَوْ قُرْصَ الشَّمْسِ تَوَهَّجَ وَالْتَهَبَ.

---

(١) الشارق : الشمس حين تشرق

— ٢ —

بَدَأَ ، فِي جِنِّ نَشاطِهِ وَرَيْعانِ شَبابِهِ ،
وَمُقْتَبَلِ عُمُرِهِ وَغَضِّ إهابِهِ ،
يَفْتِكُ بِأَسْرابِ الْوَحْشِ ، مِنْ ظَلِيمٍ أَحَمَّ ، (فَتًى أَسْوَدَ مِنْ فِتْيانِ النَّعامِ) ،
جَلَّلَهُ السَّوادُ بِلَوْنِ الْغُرابِ الْأَسْحَمِ ، (الْأَسْوَدِ)

* * *

وَوَعِلٍ (١) يَأْوِي إِلَى شِعافِ (٢) الْجِبالِ أَعْصَمَ ، (٣) ،
لا مَنَعَةَ لَهُ مِنْهُ وَلا مُعْتَصَمَ ، (٤) ،
وَثُلَّةٍ (جَماعَةٍ مِنْ ضائِنَةِ الْغَنَمِ) آمِنَةٍ سالِمَةٍ ،
أَخَذَ خِيارَها لِعِرْسٍ — فِي عِرِّيسَتِهِ — رابِضَةٍ جاثِمَةٍ ،
بَعْدَ أَنِ اقْتَنَصَها فِي رائِعَةِ الظَّهِيرَةِ ،
لِيُقَدِّمَها طَعاماً شَهِيًّا لِلَباتِهِ الأَمِيرَةِ ،

---

(١) الوعل : تيس الجبل . (٢) الشعاف : رؤوس الجبال ، وأعاليها .
(٣) الأعصم ، من الظباء والوعول : ما فى ذراعيه أو فى أحدهما بياض ، وسائره أسود ، أو أحمر . (٤) المعتصم : الملجأ .

وَثَوْرٍ مِنَ الْبَقَرِ لَهُ — بَيْنَ رَبْرَبِهِ — خُوار ،
وَثَبَ إِلَيْهِ وَثْبَةَ مارِدٍ جَبّار ،
واقْتَنَصَهُ فِي زَوالِ نَهارٍ ،
ثُمَّ احْتَمَلَهُ لِعَرِينَتِهِ ،
غِذاءً لِعِيالِهِ وَقَرِينَتِهِ ،

* * *

وَعِلْجٍ مِنْ عُلُوجِ الْبَقَرِ فَتِيّ ،
آبَ (رَجَعَ) بِهِ لِأَشْبالِهِ فِي الْعَشِيِّ ،
وَوَحْشِيٍّ مِنَ الْحُمُرِ سَمِينٍ قَوِيٍّ ،
صَرَعَهُ بَعْدَ أَنْ رَعَى الرَّوْضَ الْعاطِرَ الذَّكِيَّ ،

* * *

أَمَّا صَيْدُ الظَّبْيِ فَهُوَ — فِيما يَرَى — تَفِهٌ حَقِيرٌ ،
يَصِيدُهُ عاجِزٌ — كالذِّئْبِ — مُحْتاجٌ فَقِيرٌ ،

— ٣ —

ثُمَّ عافَ (كَرِهَ) لُحُومَ الْوَحْشِ وَسَئِمَها ،

---

(١) العرينة : مأوى الأسد وغيره من سباع الحيوان . (٢) صلب شديد .

وَأَحَبَّ لُحُومَ الْإِنْسِ وَاسْتَطْعَمَهَا ،
فَإِذَا أَبْطَأَ عَنْهُ — صُبْحًا — رَكْبٌ يَغْدُو ،
طَرَقَهُ — لَيْلًا — وَهُوَ عَائِدٌ يَعْدُو ،
فَالْوَاحِدُ مِنْ رِجَالِ الرَّكْبِ لَهُ أَكِيلٌ (مَأْكُولٌ) ،
وَتَبْضِيعُ (١) لَحْمِ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ حَسَنٌ جَمِيلٌ ،
وَفِي لَحْمِ الرَّجُلِ شِفَاءٌ مِنْ أَلَمِ الْجُوعِ وَأَذَاهُ ،
وَفِي لَحْمِ الرَّجُلَيْنِ غِذَاءٌ مَا أَطْيَبَهُ لَهُ وَأَشْهَاهُ .

— ٤ —

وَلَمَّا أَخَافَ ذٰلِكَ الْأَسَدُ الرِّئْبَالُ ،
مَنِ اجْتَازَ بِهِ مِنْ أَبْطَالِ الرِّجَالِ ،
وَفَزَّعَ كُلَّ وَحْشِيٍّ يُجَاوِرُهُ فِي الْقَفْرِ ،
وَكُلَّ إِنْسِيٍّ يُلِمُّ بِسَاحَتِهِ مِنْ جَمَاعَةِ السَّفْرِ (الْمُسَافِرِينَ)
اتَّفَقَ أَنْ مَرَّ بِهِ عَدَدٌ مِنَ الْأَبْطَالِ ،
فِي أَيْدِيهِمُ الْقِسِيُّ وَالنِّبَالُ ،
فَوَثَبَ إِلَى شُجَاعٍ مِنْهُمْ فَاعْتَنَقَهُ ،

(١) تقطيع

وَفَرَّى (قطّع) جسدَهُ وَمَزَّقه ،
فَرَمَتْهُ صحابته بمعابِلَ (بسهامٍ) وَنِبالٍ ،
وَهُوَ يظنُّ أَنَّهُ لَيْسَ بمُسْتَطاعِ الْمَنالِ ،
وَرَشَقُوهُ بِسِهامِهِمْ حَتَّى لَكَأَنَّها فى جَسَدِهِ قُنْفُذٌ
أَخْرَجَ لِصائِدِهِ شَوْكَهُ ،
فَتَداعَى الْأَسَدُ ، وَلَمْ تَعُدْ لَهُ صَوْلَةٌ وَلا شَوْكَةٌ ،

— ٥ —

وماتَ الْأَسَدُ ، كَما يَمُوتُ ابْنُ أَنْقَدَ (القنفذ)
وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ وَلٰكِنَّهُ رَقَدَ ،
حَتَّى إذا بانَ لَهُمْ أَنَّهُ ماتَ ،
تَناوَلُوهُ بِسُيُوفِهِمِ الْماضِياتِ ،
وَتعاوَرُوا جسمَهُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهاتِ ،
وَطَعَنُوهُ بِرِماحٍ مُشْرَعَةٍ ،
حَتَّى عَرَفُوا — بَعْدَ لأْيٍ — أَنَّهُ لَقِيَ مَصْرَعَهُ ،
وَقَدْ بَضَعُوهُ قِطَعاً ، مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ وَالْحَنَقِ ،

لِيَسْتَوْثِقُوا أَنَّهُ فَارَقَ عَيْشَهُ الْأَنِقَ ،

— ٦ —

وَقَبْلَ ذٰلِكَ طَالَمَا اقْتَسَرَ (اغْتَصَبَ) ، فَقِيلَ : «قَسْوَرَ» ،
وَسَاوَرَ (وَاثَبَ) ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْمِسْوَرُ ،
وَرُبَّمَا بَرَزَ إِلَيْهِ أَمِيرٌ فِي خَيْلٍ وَحَاشِيَةٍ ،
فَرَآهُ جَاثِمًا عَلَى سَاعِدَيْهِ حَتَّى كَأَنَّهُ مَلِكُ الْبَادِيَةِ ،
فَاحْتَالَ فِي مُرَاوَغَتِهِ وَخَتْلِهِ ،
حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِ ،

* * *

وَلَوْ نَجَا مِنْ ذٰلِكَ الْأَمِيرِ وَأُولٰئِكَ السَّفْرِ (الْمُسَافِرِينَ)
وَعَاشَ يَتَحَكَّمُ فِي الْبَادِيَةِ وَالْقَفْرِ ،
لَلَفَظَ نَفَسَهُ فِي الشَّيْخُوخَةِ وَالْهَرَمِ ،
وَرَضِيَ بِالتَّفِهِ — مِنَ الرِّزْقِ — بَعْدَ الصَّيْدِ الْأَكْرَمِ .

٢ — القصة الثانية

— ١ —

وَإِلَيْكَ الصُّورَةَ الثَّانِيَةَ مُتَرْجَمَةً مِنْ بَعْضِ فُصُولِهِ ،

وَهِيَ تُمَثِّلُ أَسَداً هائِلاً ضَخْماً ،
يَخْشَى الظُّلْمَةِ رائِماً جَهِماً ،
فِي أَرْساغِهِ فَدَعٌ (١) وَاعْوِجاجٌ ،
كَأَنَّمَا كُسِرَ ساعِداهُ ، فَمَا اسْتَوَى جَبْرُهُما وَلَا الْتَأَمَ
بَعْدَ عِلاجٍ .

وَهُوَ عَلَى قُوَّتِهِ وَتَجَبُّرِهِ ، وَسَطْوَتِهِ وَتَكَبُّرِهِ ،
يُقَدِّسُ مَوْلاهُ ، وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ ،
فَإِذا خَرَجَ مِنْ عِرِّيسَتِهِ ، وَلاحَ لِفَرِيسَتِهِ ،
أَفْزَعَها مَرْآهُ ، وَصَرَعَها الْخَوْفُ قَبْلَ أَنْ تَلْقاهُ .

وَيَسْتَلْهِمُ شاعِرُنا قَوْلَ « ابْنِ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ » فِي وَصْفِ أَسَدٍ :

يَقُوتُ شِبْلَيْنِ عِنْدَ مُرْضِعَةٍ
قَدْ ناهَزا لِلْفِطامِ ، أَوْ فُطِما

---

(١) الفدَع : اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل حتى تنقلب الكف أو القدم عند المشى ، وهو خلق مشاهد فى أرساغ الأسد عند مشيه .

ما مَرَّ يَوْمٌ إلَّا وعِنْدَهُما
لَحْمُ رِجالٍ ، أَوْ يُولِغانِ دَما

كأَنَّما كُسِّرَتْ سَواعِدُهُ
فما اسْتَوى جَبْرُها ، ولا الْتَأَما

فَيُصَوِّرُهُ — كَما صَوَّرَهُ ابْنُ الرُّقَيَّاتِ — كَأَنَّ مِفْصَلَيْ
ساعِدَيْهِ قَدْ كُسِرا ، ثُمَّ أُعِيدا بَعْدَ الْكَسْرِ ،
فَما اسْتَوَى — بَعْدَ الْعِلاجِ — جَبْرُهُما ،
وَلا الْتَأَمَ — بَعْدَ الشِّفاءِ — عَظْمُهُما ؛
فَلا عَجَبَ إذا بَدا كَأَنَّ فِي أَرْساغِهِ[1] فَدَعاً (شَدْخا) ؛
إذا نَهَضَ تَثاقَلَ فِي نَهْضَتِهِ .
وإذا مَشَى ظَلَعَ (غَمَزَ) فِي مِشْيَتِهِ .
وعَرَجَ فِي خَطْرَتِهِ .

---

(١) الأرساغ : جمع رسغ ، وهو : موصل الوظيف من اليد والرجل ، أو مفصل ما بين الساعد والكف والساق والقدم — ومثل ذلك — من كل دابة ، (والوظيف : مستدق الذراع والساق ، أو هو مقدم الساق) .

لايزالُ مِنْ رزقِ اللهِ مختضباً بمثلِ الصِّرْفِ (١) الأحمرِ،
إذا علقتْ براثِنُهُ واصطبغَ بهِ ساعِداهُ، حمِدَ رازِقه وشكرَ.
وهُوَ رائِعُ البطشِ والقوّةِ، عظيمُ البأسِ والفتوّةِ،
فإذا أقوى (فتى زاده) ملأ مسامعَ الوحشِ زئيراً
وصخباً، وخلعَ القلوبَ ذُعْراً ورَهباً.

***

يرْعى أشبُلَـهُ ويرحَمُهنّ،
ويخصُّهنّ بأطيبِ ما عِندَهُ ويُؤثِرُهُنّ،
ويمنحهنّ لذائذَ الأطعمةِ ويقوتُهنّ.
يُوسِعُهنّ — في المُداعبةِ — خمشاً وعضاً،
فيجزِينَ تدليلَـهُ إعراضاً رحِيماً وغضاً،
ويمسُّهنّ مساً رفيقاً،
ويُعابِثُهنّ عبثاً رقيقاً،
ويرشّحهنّ للصيْدِ إذا شدَدْنَ (إذا نمونَ وترعرعْنَ،
واستغنينَ عنْ أُمِّهِنّ)

---

(١) الصرف: صبغ أحمر يصبغ به الجلد.

وَيُعلِّمهنَّ كيفَ يصِدْنَ ،

إذا تمَّ نُمُوُّهنَّ وَكَبِرْنَ .

يَلْبُدُ الشَّادِي مِنهنَّ لِفَرِيسَتِهِ ، فيَقتَنِصُها بِوَثبَةٍ لِساعَتِه ،

فإذا فَرَسْنَ (قتلن فرائسهنَّ ، ودققن أعناقهنّ) لَمْ يَرْقُبِ

الْأَبُ فِيهِنَّ إِلًّا (قَرابَةً وَعَهْدًا) وَلا ذِمَّةً ،

وَلا يَرْعَى لَهُنَّ حُرْمَةً ،

وَلا يُحِسُّ نَحْوَهُنَّ عاطِفَةَ رَحْمَةٍ .

— ٢ —

تَبارَكَ رَبُّكَ الْقَدِيمُ ، غَرَزَ فِي طَبِيعَةِ الْبَهائِمِ رَحْمَةَ

الْأَبْناء ، وَسَلَبَهُنَّ عاطِفَةَ الْحُنُوِّ عَلَى الآباء .

لا يَرْحَمُ أَحَدُهُنَّ أَباهُ ، إذا مَسَّهُ الضُّرُّ وَشَفَّهُ الْأَلَمُ ،

وَلا يُطْعِمُهُ وَلَوْ أَشْفَى عَلَى الْهَلاكِ مِنَ الْجُوعِ وَالضَّرَمِ (١) .

وَسُبْحانَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ بَنِي آدَمَ كَالْبَهائِمِ فِي الْعُقُوقِ ،

وَفِي جَحْدِ ما لِلْآباء عَلَيْهِمْ مِنْ رِعايَةٍ وَحُقُوقٍ .

---

(١) الضرم : شدة الجوع أو الغضب .

— ٣ —

هِزَبْرٌ كَأَنَّمَا بِهِ رِعْدَةٌ مِنْ حُمَّى «خَيْبَرَ» أَوِ «الْقَطِيفِ»،
مَتَى جَاعَ فَلَيْسَ بِالْقَانِعِ وَلَا الْعَفِيفِ.
كَالِحٌ فِي صُورَةِ الْغَضْبَانِ، وَمَا بِهِ غَضَبٌ،
لَا يُحْجِمُ إِذَا أَلَحَّ عَلَيْهِ الْجُوعُ وَلَجَّ بِهِ السَّغَبُ (١)،
أَنْ يُلْحِقَ بِأَكِيلِهِ الْهَلَاكَ وَالْعَطَبَ.
جَرِيءٌ، عَمَدَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ،
أَهْلِ شَجَاعَةٍ وَأُولِي بَاسٍ،
فَدَأَبَ عَلَى أَنْ يَقْنِصَ (يَصِيدَ) مِنْهُمْ فَرِيصَتَهُ،
وَيَأْكُلَ — مِنْ وَافِدِهِمْ — فَرِيسَتَهُ،
فَأَلَّبُوا (جَمَعُوا) عَلَيْهِ شُجْعَانَهُمْ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ،
وَقَعَدُوا لَهُ كُلَّ مَرْصَدٍ،
وَنَسَلُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ (٢)،
وَلَبِسُوا لَهُ الدُّرُوعَ وَالْيَلَبَ (٣)، (التُّرْسَةَ أَوِ الدُّرُوعَ الْيَمَانِيَّةَ مِنَ الْجُلُودِ)

(١) السغب: الجوع مع تعب. (٢) الحدب: ما ارتفع من الأرض.
(٣) وقيل: جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرءوس خاصة.

وَخرجُوا إليهِ آلافاً ،

وَسقَوْا لهُ — مِنَ النّصالِ — سُمًّا ذُعافاً .

وَأَعدُّوا لهُ ماضِيَ اليَمانيَّةَ ، وَطِوالَ الرِّماحِ ،

وَحمَلُوا — للفتْكِ بِهِ — كُلَّ آلَةٍ أُعِدَّتْ لِلقتالِ وَالكِفاحِ ،

وَليْسَ بيْنَهُ وَبيْنهُمْ ، إلَّا المَدَى اليَسِيرُ .

فَدَلَفَ (مَشَى مَشْياً قَارَبَ فِيهِ الخَطْوَ) إليْهِمْ ،

وَأَجلَبَ عَليْهِمْ (صاحَ بِهِمْ) ،

فَنَضَوا السُّيُوفَ مِنَ الغُمُودِ (استَلُّوها مِنَ الأغْمادِ) ،

وَاستَنْجَدَ هُوَ بصَيْحاتِ زَئيرٍ كالرُّعُودِ[1] .

وَلمعَتِ السُّيُوفُ كَأَنَّها بُرُوقُ العامِ الخَصِيبِ ،

وَأَشْرَفَ عَليْهِ رامٍ مِنْ فَوْقِ كَثِيبٍ (تَلٍّ مِنَ الرَّمْلِ) ،

---

(١) من أبرع ما قرأناه فى هذا الباب ، قول « البحترى » يصف « الفتح ابن خاقان » وهو يصارع أسدا :

« أَدَلَّ بِشَغْبٍ ، ثُمَّ هالَتْه صَوْلَةٌ ... رَآكَ لها أَمضَى جَنانًا وأَشْغَبا

فأَحْجَمَ ، لَمَّا لَمْ يَجِدْ فيكَ مَطْمَعًا ، ... وأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبا

فلمْ يُغْنِه : أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلًا ، ... ولَمْ يُنْجِه : أَنْ حادَ عَنْكَ مُنَكِّبا

حَمَلْتَ عَلَيْهِ السَّيْفَ ، لا عَزْمُكَ انْثَنَى ... ولا يَدُكَ ارْتَدَّتْ ، ولا حَدُّهُ نَبا »

فَرَماهُ بِالسَّهْمِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيب ،
وَتَوالَتْ عَلَيْهِ سِهامُ الرَّامِينَ ،
وَنِصالُ الصَّيَّادِينَ ،
فَأَثْخَنَتْهُ (أَوْهَنَتْهُ وَأَضْعَفَتْهُ) بِالْجِراحِ ،
ثُمَّ هَجَمَ فَشَجَرُوهُ بِالرِّماحِ (طَعَنُوهُ بِها) .

— ٤ —

وَهٰكَذا عادَ فِي أَيْدِي الْمَنايا مُوَزَّعاً مُنْتَهَباً ،
وَخَرَّ فِي النِّهايَةِ ، صَرِيعاً مُتَرَّباً .
وَلَوْ أَنْظَرَهُ الزَّمانُ لَنَقَضَ مِرَّتَهُ (أَذْهَبَ شِدَّتَهُ) ،
وَلاشَى قُوَّتَهُ .
حَتَّى يُسْلِمَهُ الضَّعْفُ إِلَى الْمَنُون ،
وَلِلّٰهِ فِي خَلْقِهِ شُئُون .

الجزء الثانى

النَّصُّ الكامل

الجزء الأول

فهرست

	صحيفة
تمهيد	
القدرة الإلهية	
الوفاء والغدر	٣
الصدق والكذب	٥
سخرية ابن الرومى	٨
تصوير الأمانى	٩
من عجائب القدرة	١١
عصر السرعة واللاسلكى	١٢
الحواس الخمس	١٣
تذليل الوحوش	١٤
قصة الصخرة	١٥
على لسان شاعر	٢٠
الفصل الأول	
الطبيعة الإنسانية	
لو غُرْبِلَ الناس	٢٣
طريق الإصلاح	٢٤
خيانات الأعضاء	٢٥
خيانة الضمير	٢٧
غريزة الجسم	٣٢
ثبات الطبع	٣٢
الطبع واللون	٣٣
الطبع والهوى	٣٤
طبائع الأجيال	٣٥
الخير والشر	٣٧
الطبع والخلق	٣٧
الجنس والنوع	٤٢
مركّب النقص	٤٤
الوعظ وسامعوه	٤٦
الكلب والثعبان	٤٨
الطبع والعقل	٥١
الطبع والعادة	٥٤
الجود والبخل	٥٥

صحيفة

الطبع الفنّى ٥٦
الطبع المكتسَب ٦٠
الدواء الشافى ٦١
الكنز العلائى ٦١
فى العالم الآخر ٦٢

الفصل الثانى

الطبع الحيوانى

الضعيف والقوى ٦٤
غريزة الظلم... ... ... ٦٥
طبيعة الخوف ٦٨
براعة النحلة ٦٩
رزق الحيوان ٧٠
فى طلب الرزق ٧٦
فنون الغرائز ٧٩
تصاريف القدر ٨٣

الفصل الثالث

قصتان

أسامة والفأر ٩١
النسر والعصفور ٩٦

صحيفة

الفصل الرابع

فى عالم الأسود

بين المعرى وابن الرومى .. ٩٨
ابن المقفع والجرْذان. ... ١٠١
بين المعرى والبحترى. ... ١٠٧
ثمر النبع ١٠٨
فأرتان ١١٠
قصة الجنى. ١١١
الأسد والقط ١١٣
سطوة الأسد ١١٥
أسد النجوم ١٢٣
الأسد الرهيص. ١٢٤
الأسد والشجر. ١٢٥
كيد الناس ١٢٥
فى الدار الآخرة ١٣٤

الفصل الخامس

مصرع أسامة

القصة الأولى ١٣٧
القصة الثانية... ... ... ١٤٣

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0040420361

DATE DUE

SEP 30 2010

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

09635602
PJ 7750
.A25 R6 1944 V1 C1

SEP 8 1952